ثم يقول الله تعالى على لسان يوسف عليه السلام:

﴿ٱذْهَبُوا۟ بِقَمِيصِى هَٰذَا فَأَلْقُوهُ عَلَىٰ وَجْهِ أَبِى يَأْتِ بَصِيرًا وَأْتُونِى بِأَهْلِكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٩٣﴾﴾

[رقم الحلقة على القرص المدمج: ٧٠]

تنتقلُ بنا هذه الآيةُ أخي المؤمن، إلى مرحلةِ الإجراء العمليّ والتصرُّف المناسِب الذي اعتزَمَ يوسفُ عليه السلامُ إتمامَه، بجمعِ شَمْلِ العائلةِ كُلِّها، ولن يكونَ ذلك إلا بمجيء الجميع إلى مِصْر، ولن يكونَ حُضوراً بائساً، بل سيكونُ حُضوراً مُظَفَّراً بهيجاً.

فلنبدأ بتأمُّلِ الآيةِ الكريمة: يقولُ الله تعالَى على لسانِ يوسفَ عليه السلام: **﴿اذهبوا بقميصي هذا فألْقُوهُ على وَجْهِ أبي يأتِ بصيراً وأتوني بأهلِكُمْ أجمعين﴾**.

في هذه الآيةِ لطائفُ عدة:

اللطيفة الأولى: في حضورِ ذِهْنِ يوسفَ عليه السلام وتوقُّدِ ذكائه. فقد كان منذُ لَحظاتٍ يدعو الله تعالى أنْ يَغْفِرَ لإخوتِه إساءَتَهم، ويُعْلِنُ لهم أنه سامَحَهُمْ وعفَا عَنْهُم.

ولعلّهُمْ أخبروه بما كانَ مِنْ أمرِ أبيهم، وذَهَاب بَصَرِه حُزْناً عليه، ولعلّهُ جاءه عِلْمٌ غيبيٌ مِن عند الله تعالى، بما حصَلَ معَ أبيه، فإذا بهِ وبسرعةٍ، ينْتهزُ الفُرْصة لحلِّ جميعِ الأزَمَاتِ دُفْعَةً واحِدة، دونَ أنْ يُبْقِيَ شيئاً مِنْ آثارِ الماضي، يُعَكِّرُ صفْوَ اجتماعِهم المُنتظر.

ولعله جاءَهُ عِلْمٌ غيبيٌ آخر مِنْ عندَ الله تعالى، حوْلَ كيفيةِ بُرْء أبيه مما فيه مِنْ ذهابِ البَصَر، فكانَ أنْ عاجَلَهُمْ بقولِه: **﴿اذهبوا بقيمصي هذا﴾**.

اللطيفة الثانية: في وقُوفنا عندَ دِقّةِ الموقفِ الذي يقِفُهُ يوسفُ عليه السلام، في هذه اللحظات:

فلقَدْ كانَ بإمكانِه أنْ يُرسِلَ قَميصَهُ معَ أحدِ أفرادِ حاشِيَتِه، ويسْتَبْقِي إخوتَه عنْدَه، وهو سعيدٌ بمجيئهم، وهو يُريدُ إكرامَهم وبعضُ أماراتِ الإكرام، رَفْضُ العَنَتِ والجَهد.

فإذا به يأمُرُهم بالعودةِ إلى أبيهم، وتلك ستكونُ الرحلة الرابعةَ لهم، في سَفرٍ شَاقٍّ ما انْفَكُّوا يَقْطَعُونَهُ جيئَةً وذَهَاباً.

وكانَ بإمكانِه على أقَلِّ تقدير، أنْ يُرْسِلَ أحدَ الإخوةِ معَ أفرادِ الحاشية، إيناساً ودِلالةً لهم، وتأكيداً على صِدْقِ مقولتِهم.

إلا أنه أرَادَ مِنهم أنْ يَذْهَبُوا جميعاً، ليُقَدِّمُوا الاعتذارَ شَخْصِيّاً إلى أبيهم، عسَى أنْ يقْبَل مِنْهُم عُذْرَهم، كما قَبِلَهُ يوسفُ عليه السلام وأنْ يَدعُوَ الله تعالى لهم، أنْ يغْفِرَ لهم، كما فَعَلَ يوسفُ عليه السلام. فتصْفُو ذِمَمهم بالتالي مِنْ حُقُوقِ كُلِّ أصحابِ الحقوق، ويكونوا بذلك أهلاً حقّاً للحصولِ على صِفةِ الأسْبَاط. وبالتالي النبوة.

اللطيفة الثالثة: في تساؤلِنا عن سببِ إرسالِ القميصِ إلى الأب مَعَ العِلْم أنّ الخُطَة تقْضِي بمجيئه مع كُلِّ الأهل. وقد أمكنَ ليوسفَ عليه السلام، أَنْ ينتظِرَ مجيئَهُ حتى يُلْقِيَ عليه القميصَ فيرتَدَّ بصيرا.

الجوابُ هو أنَّ يوسفَ عليه السلام، أرَادَ أنْ يَرى أَبَاهُ على أبْهَى حُلّةٍ وفي أجملِ صورة، وأرادَ أنْ يأتيَ الأبُ عَزيزاً مُعزَّزاً مُكرّماً، بَصِيراً واعياً مُدْرِكاً، نَاظِراً إلى مِصْر حيثُ يوسفُ عليه السلام، بل حيثُ يَحْكُمُ يوسفُ عليه السلام.

ومعلومٌ أنّ هذا كُلّه بفضلِ الله تعالى عليهم: فلقد أذْهَبَ الله تعالى بصرَهُ لحكمةٍ هو أدْرَى بها، وهو الذي يشاءُ أن يعيدُه إليه، وهو الذي أوْحَى إلى

يوسفَ عليه السلام، أَنْ أرسلِ القميصَ ليكونَ سبباً في عودةِ بصرِه، وفي هذا تعليمٌ لنا أنّ المِحَنَ تُصيبُ كُلّ الناس، حتى الأنبياءَ والمرسلين، فنجِدَ لأنفُسِنَا في مِحنِنَا، وفي قَصصِهم عبرةً وعِظَةً وسلوى.

اللطيفة الرابعة: في وُقوفِنا عندَ قولِه: ﴿**وأتوني بأهلِكم أجمعين**﴾.

يوسفُ عليه السلام يُخاطِبُ إخوتَه، فيأمرُهُم أنْ يُلْقُوا القميصَ على وجْهِ أبيهم، فيرتَدَّ إليه بَصَرَه: هذا هو الأمرُ الأول.

ثم إنه يأمُرُهم أنْ يأتُوا بأهْلِهم جميعاً: هذا هو الأمرُ الثاني.

ولم نلْحَظْهُ يطْلُبُ منهم أَنْ يُحْضِرُوا أباه.

وتلك قِمةُ التأدُّبِ معَ الأبِ يعقوبَ عليه السلام.

فإنَّ مكانَتَهُ ومهابَتَهُ أعلى مِنْ أنْ يُدْرَجَ معَ طلبِ إحضارِ الأهل. وقد سَمِعْنَاهُ يقول: ﴿**وأتُوني بأهْلِكُم أجمعين**﴾.

أنَّ عُلُوّ مقامِ يعقوبَ عليه السلام، يُغني يوسفَ عليه السلام، عن مجردِ ذِكرِ مجيئه.

ونحن نَفْهَمُ مُباشرةً، دونَ الحاجةِ إلى ذِكرِ كلام، أنَّ يعقوبَ عليه السلام، هو المَغْنِيُّ الأوّلُ بالمجيء.

ويوسفُ عليه السلام، يَرْتَقِبُ تَحَقُّقَ رُؤْياهُ التي رأى في صِغَرِهِ. ولن يكونَ ذلك إلا بوجودِ أَبيهِ على رأسِ القادمين.

اللطيفة الخامسة: في وقوفِنا متأمِّلِينَ لواقعِ حالِ يوسفَ عليه السلام في هذه اللحظاتِ مِنَ القِصة:

فلم يَعُدْ مُلْزَماً بعناءِ إخفاءِ شَخْصِه، وَصارَ يتحدّثُ براحتِه وعلى سَجِيّته، فهو الآنَ الأخُ المفقودُ يوسف، الذي يُكَلِّمُ إخوتَه بسرورٍ وانشراح.

لكنّه الآن يوسفُ العزيزُ ولا يُمْكِنُه أنْ يَنْزِعَ رِدَاءَ المُلْكِ عَنْ نَفْسِه، فنراه يتحدّثُ بلهجةِ الآمر الواثق.

وهو الذي يُوَزِّعُ على إخوتِهِ الأدوارَ والواجبات، وقد رَفَعَهُ الله تعالى فَوْقَهم، ولقد أقَرُّوا بما رأَوْا إذْ قالوا: **﴿تالله لقد آثَرَكَ الله علينا﴾**.

ولكنه يَبْقَى يوسفَ المتواضعَ لله تعالى، فلا يَتَعَالَى عليهم، ولا يَحْقِدُ عليهم ولا يترفَّعُ عنهم، بل يجعلُ كُلَّ هَمِّهِ جَمْعَ العائلةِ من جديد. وقليلٌ مِنَ الناسِ مَنْ نَراهُ يصِلُ إلى هذه الدرجةِ مِنَ التَّسَامُحِ والعفوِ والتواضع.

مواطن الإسترشاد بالآية في الحياة اليومية:

١ - للدلالة على وجوب الصبر على المصائب، واحتسابها عند الله تعالى، والتأسي بحال يعقوب عليه السلام، الذي صبر على ما أصابه، وهو نبي الله المرسل، وكما أن الله تعالى فرّج عنه بعد فترة من الزمن، فكذلك نأمل نحن أن تفرج كروبنا ولو بعد حين.

٢ - للدلالة على أن صلة الرحم يجب أن تشتمل على أفراد العائلة دون أن يكون هناك تفريق أو انتقاء، وعلى الواحد منها أن يسامح من أساء إليه من عائلته، فما من شيء يستحق أن تقطع الرحم من أجله، بل أن الوقت الضائع في قطيعة الرحم لا يعوض ولا ينفع معه الندم، خصوصاً إذا ما غيّب الموت أحد المتقاطعين قبل أن يتواصلا.

ثم يقول الله تعالى:

﴿وَلَمَّا فَصَلَتِ ٱلْعِيرُ قَالَ أَبُوهُمْ إِنِّى لَأَجِدُ رِيحَ يُوسُفَ لَوْلَآ أَن تُفَنِّدُونِ ﴿٩٤﴾ قَالُوا۟ تَٱللَّهِ إِنَّكَ لَفِى ضَلَٰلِكَ ٱلْقَدِيمِ ﴿٩٥﴾﴾

[رقم الحلقة على القرص المدمج: ٧١]

تقتربُ بنا هاتانِ الآيتانِ، أخي المؤمن، منَ انتهاءِ المِحنةِ في حق يعقوبَ عليه السلام، وهو آخرُ منْ سيَبْلُغه خبرُ بقاءِ يوسفَ عليه السلامُ حَيًّا، عِلماً بأنه الوحيدُ الذي كانَ لا يَزالُ مُوقِناً بأنّ يوسفَ عليه السلامُ حي، وكانَتْ في الماضي كُلُّ الجهودِ مُنْصَبةً لإقناعِه بأنَّ يوسفَ عليه السلامُ ليسَ حياً.

فلنبدأ بتأمُّلِ الآيتين:

يقولُ الله تعالى: **﴿ولَمَّا فصَلَتِ العيرُ قالَ أبوهم إني لأجدُ ريحَ يوسف لولا أنْ تُفنِّدُون﴾**.

في هذه الآية لطائفُ عدة:

اللطيفة الأولى: في وقوفِنا عند جمالِ العِبارةِ في قوله تعالى: **﴿ولمّا فصَلَتِ العير﴾** والمقصودُ بها: لمّا انفصلتِ القافلةُ عَنْ مِصرَ مُتَّجِهَةً صَوبَ يعقوب عليه السلام، إنفاذاً لأمرِ يوسفَ عليه السلام، كما رأينا في الآيةِ السابقة، ومُباشَرَةً عند تَرْكِ مِصْر، وهي لا تَزالُ بعيدةً جداً عنِ الوصول. وبتأمُّلِنا لهذه العِبارة، نُلاحظُ تَنوُعاً عَذْباً في التعبيرِ، لا نَجِد له مثيلاً في قَصَصِ القَاصِّين.

فبالعودةِ إلى الآيات القرآنيةِ المتتالية، الدالةِ على تحرُّكِ قوافِلِ إخوةِ يوسفَ منذُ أنْ يَمَّمُوا شَطْرَ مِصْرَ، نقرأُ:

عِنْدَ بدءِ الرحلةِ الأُولى: **﴿وجاءَ إخوةُ يوسف﴾**[(١)].

وعِند عودتِهم مِنْ رحلتهم الأُولى: **﴿فلمّا رَجعُوا إلى أبيهم﴾**[(٢)].

ولمّا عادُوا في الرحلةِ الثانية، نقرأُ: **﴿ولما دَخلُوا من حيثُ أمرَهم أبوهم﴾**[(٣)].

---

(١) [سورة يوسف، الآية: ٥٨].

(٢) [سورة يوسف، الآية: ٦٣].

(٣) [سورة يوسف، الآية: ٦٨].

ولمّا انْطَلَقُوا للعودةِ مِن رحلتِهِمْ الثانية نقرأ: ﴿فلمّا جَهَّزَهُمْ بِجهازِهم﴾[١].

ولمّا أرادُوا العودةَ في الرحلةِ الثالثةِ نقرأ: ﴿يا بَنِيَّ اذْهَبُوا﴾[٢].

وها نحنُذا في هذه الآيةِ نقرأ: ﴿ولمَّا فصَلَتِ العير﴾.

ومعَ بدءِ كُلِّ رحلةٍ، تعبيرٌ جديدٌ يَرْقَى بنا في تَذَوُّقِ الجماليَّةِ اللُّغويةِ لآي الذِكْرِ الحكيم.

اللطيفة الثانية: لُغويةٌ أيضاً، في قولِه تعالى: ﴿قال أبوهم إني لأَجِدُ رِيح يوسف﴾.

والمقصودُ: أني أشتَمُّ رائحةَ يوسفَ، فجاءَتِ العِبارةُ أشْمَلَ وأعَمّ. بل أقول: أعلى وأرفع، بما يتناسَبُ ومَقَامَ يعقوبَ عليه السلام، فنحن نعلمُ أنه في هذه اللحظات، فَاقِدٌ للبصَر، واتصالُه بالعالمِ الخارجيِّ يكونُ عَنْ طريقِ السَمْعِ واللَّمْسِ والذَّوْقِ والشَمّ.

ولئِنْ حصَرْنَا العِبارَةَ بقولِنا: إني أشُمُّ رائحةَ يوسف عليه السلام لكان المعنى هبَطَ إلى المستوى الحسيِّ الماديّ.

أمَّا أن نسْمَعَهُ يقول: ﴿إني لأَجِدُ رِيحَ يوسف﴾، فكأنَّهُ يقولُ لهم: إني أستَشْعِرُ بكاملِ كيانِي فيما آتاني الله تعالى من طَاقَاتٍ ومَلَكَاتٍ، رائحةَ يوسف، بطبيعةٍ مُختَلِفةٍ عَنْ تِلْكَ التي تَعْرِفُونَ أنتم، بما تمْلِكُونَ مِنْ إمكانيةِ الشَمِّ المحدُودة.

اللطيفة الثالثة: في مُلاحَظَتِنا لمشيئةِ الله تعالى، بإظهارِ المُعجزةِ التي اختُصَّ بها يعقوبَ عليه السلام، بعدَ فترةٍ طويلةٍ مِنَ انقطاعِ الإعلام. فلقد عَلِمْنَا أنَّ يَعْقُوبَ عليه السلام، يعيشُ حالةَ حُزنٍ وقلقٍ شديدين منذُ أنْ فَقَدَ يوسفَ عليه السلام.

ولقد مَكَثَ يوسفُ عليه السلامُ في مِصْرَ سنينَ طويلة، ولم يتَمَكّنْ يعقوبُ عليه السلامُ مِنَ الوصولِ إلى معرفةِ مكانِ وجودِه، ولم يُعْلِمْهُ الله تعالى عَنْ مَكانِ وجودِه.

---

(١) [سورة يوسف، الآية: ٧٠].

(٢) [سورة يوسف، الآية: ٨٧].

ولم يَطْلُبْ هُوَ منَ الله تعالى، أنْ يُعْلِمَهُ بمكانِ وجودِه، وهو نبيٌ مُرْسَل.

وإذا به الآن يشتمُّ رائحةَ يوسفَ عليه السلام، مِنْ مكانٍ بعيدٍ جداً، قد يكونُ عندَ أسوار المدينةِ في مِصْر.

وبالتالي، فهذا إعجازٌ وإكرامٌ مِنَ الله تعالى، ولم يَكُنِ الإذْنُ قد حَصَلَ قَبْلُ فلم تَتَمكّنْ أدواتُ الحِسِّ مِنَ التقاطِ المعرفة، وكلُّ شيءٍ بمقدار، والله تعالى هو المُعْطِي والمَانِع، وإنْ شاءَ أوجدَ في أدواتِ الحِسِّ ما شاءَ لها مِنَ وظائِف.

اللطيفة الرابعة: في وقوفِنا عند عبارة: **﴿لولا أن تُفنِّدون﴾**.

وهنا إخفاءٌ وحَذْف. والمقصودُ بالعِبارة: لولا تَفنيدُكم إيايَ لصَدَّقْتُموني.

أي لولا أنكم تتّهمونني بضَعْفِ الرأيِ مِنَ الهرمِ، لصَدّقْتُموني..

وما أشَدّ ذَكاءَهُ وتَوَقُّدَ ذِهْنِه رَغْمَ هَرَمِه:

فيعقوبُ عليه السلام، يسوقُ واقعةً صحيحةً مُؤَكّدَةً في حَقِّه، ولو كانَ مُتَخَيّلاً، لكانَ تَخَيَّل غيرَها مُنذُ زمنٍ طويل، وعلى مَدَى السنين..

وهو يعرفُ مِنَ الله تعالى أنه اختَصَّهُ بهذِه الكَرامة، فخَرَقَ له العادة، ومَكَّنَهُ مِنَ الحِسِّ برائحةِ يوسفَ عليه السلام.

والذينَ مِنْ حولِه، يسترسِلُونَ في ثنيه عنِ التفكيرِ بيوسفَ عليه السلام حتى قَبْلَ هذا الإعلامِ الغيبي.

فكيفَ لهم أَنْ يُصَدِّقُوهُ الآن، وقَدْ ضَعُفَتْ لديهم وسائلُ التّصديق..

بلْ زَادَتْ لديهم مُقَوِّمَاتُ عَدمِ التصديقِ من كِبَرِ سِنٍّ، وَوَهَنِ عَظْمٍ وازديادِ حُزْنٍ؟

فكانَ أن استبقَ وعَاجَلَهُمْ بذِكْرِ ما يُفكِّرُونَ به فقال: **﴿لولا أنْ تُفنِّدُون﴾**.

ثم يقولُ الله تعالى في الآيةِ الثانيةِ، موضوعِ تأمُّلِنا اليوم: **﴿قالوا تالله إنكَ لفي ضَلالِكَ القديم﴾**.

في هذه الآيةِ لطيفتانِ اثنتان:

اللطيفة الأولى: في وقوفِنا عندَ حالِ أهلِ يعقوبَ عليه السلام، وقد أحاطُوا به يُواسُونَهُ ويُخفِّفون عنه:

فهم بحُكْمِ إعمالِهم لجري العادةِ في أحوال الناس، مُتأكِّدون مُتَيَقِّنونَ بأنّ يوسفَ عليه السلام، قد ماتَ منذُ زمنٍ بعيد.

وهم يَرَوْنَ في إصرارِ يعقوبَ عليه السلام، على نفي مَوْتِه، خطأً وبُعداً عنِ الحقيقة.

وهم يَعْلَمُونَ أنه نبيٌّ مُرْسَل، ومِنْ هذا المنطلق، يَزدَادُ يقينُهم، إذْ، في اجتهادِهم لو كانَ ما زَالَ حَيّاً لجاءَهُ الإعلامُ الغيبيُّ منذُ زمنٍ بعيدٍ بذلك.

وهم يَسْمَعُونَ منه أنه يشتَمُّ رائحةَ يوسفَ عليه السلام. وهو يسوقُ بذلكَ دليلاً مادّياً حسياً، يَمْلِكُونَ هم أنْفُسُهم أدواتِ شَمٍّ مُشابِهة..

وهم لم يَشُمُّوا رائحةً كما يشتم معَ أنهم في غُرفةٍ واحدة، ومَوْقعٍ واحد.

وقد رأَوْا كِبَر سِنِّه وضَعْفَ جِسْمه.

فزادَ يقينُهم بأنه يتَمَنَّى أنْ يجِدَ رِيحَ يوسفَ في داخِله ففنَّدُوه بقولِهم: **﴿تالله إنّكَ لفي ضَلالِكَ القديم﴾**.

اللطيفة الثانية: في وقوفِنا بالمقابلِ عندَ حالِ يعقوبَ عليه السلام:

أمّا هو، فلقد تلَقَّى الإشاراتِ الثلاثَ السابقة، التي ذَكَرْنَاها في تأمُّلِنا للآياتِ السابقة.

وهو في حالةِ تَحَفُّزٍ وارتقاب، وقدِ انتعشَتْ آمالُه، واستمرَّ انتعاشُها في تصَاعُد.

وهذا ما حَمَلَهُ على التشديدِ على وجوب التحسُّسِ مِنْ يوسفَ عليه السلام، شَطْرَ مِصْر، وأرْسَلَ أبناءَه في رحلةٍ ضعيفةِ الآمالِ في نظرِهم..

إلى أنْ وصَلَته الريحُ ووَجَدَ رائحةَ يوسفَ عليه السلام.

فانقلبَ الأملُ إلى حقيقةٍ واقعة، وهو المؤمنُ الواثِقُ الشديدُ الإيمانِ بأنّ الله تعالى لا يُمْكِنُ أنْ يَخْذُلَه.

وكان يمكِنَه أنْ يَكتُمَ هذه الثقة وهذا اليقين إلى حينِ وصولِ البشير..

إلا أنه آثر أنْ يُظْهِر أثر رَحْمَةِ الله تعالى عليه، تعليماً لأهلِ بيتِه الحاضِرين معه، وتعبيراً عنْ عظيمِ فَرْحَتِه.

ولم يأبَهْ لاحتمالِ تفنيدِه.

وسيُكَرِّرُ عليهم لاحقاً ما قالَهُ لهُم قبلاً: ﴿**إني أعلمُ مِنَ الله ما لا تَعْلَمُون**﴾.

مواطن الإسترشاد بالآيتين في الحياة اليومية:

١ - للدلالة على أن ما وصلنا إليه اليوم بما فتح الله تعالى علينا من أبواب العلم الحديث في وسائل الإتصالات، ليس بفعل براعة الإنسان وحدة ذكائه واستقلاله بعلمه كما يظن أغلب علماء اليوم، بل هو بفعل إذن من الله تعالى وتسخير ما خلق في الكون من كهارب وذرات، وما وضع من قواعد الفيزياء والكيمياء، ثم علمها عباده، وما حال يعقوب عليه السلام، فيما خرق الله تعالى له من سنن العلم في عصره، إلا أبلغ دليل على أن ما نراه اليوم من تقنيات الصوتيات والمرئيات ليست إلا مما أذن الله تعالى للإنسان بمعرفته، من فيض علمه الذي لا ينتهي.

٢ - للدلالة على وجوب عدم الجزم بأمر لا نملك كامل المعلومة عنه، حتى وإن ظننا من أنفسنا يقين المعرفة به. والأمثلة في الحياة كثيرة، كأن يقطع أحدنا باستطاعته إنجاز مسألة ما، ثم يتبين له وجود عوائق تحول دون ذلك والحكمة تقتضي أن نعقب دائماً بقولنا: إن شاء الله.

ثم يقول الله تعالى:

﴿فَلَمَّآ أَن جَآءَ ٱلْبَشِيرُ أَلْقَىٰهُ عَلَىٰ وَجْهِهِۦ فَٱرْتَدَّ بَصِيرًا ۖ قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ إِنِّىٓ أَعْلَمُ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٩٦﴾ قَالُوا۟ يَٰٓأَبَانَا ٱسْتَغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَآ إِنَّا كُنَّا خَٰطِـِٔينَ ﴿٩٧﴾ قَالَ سَوْفَ أَسْتَغْفِرُ لَكُمْ رَبِّىٓ ۖ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٩٨﴾﴾

[رقم الحلقة على القرص المدمج: ٧٢]

تصلُ بنا هذه الآياتُ، أَخي المؤمن إِلى النهايةِ السعيدةِ لمحنةِ يعقوبَ عليه السلام، التي شاءَها اللّه تعالى له، بعودةِ بَصرِه، بعدَما فَقَدهُ مِنْ شِدَّةِ حُزْنِهِ على يوسفَ عليه السلام، وهذه معجزةٌ أَكْرَمَهُ الله تعالى بها، وهو القادرُ على كلّ شيء، يحيي العِظامِ وهي رَمِيم، يَبعثُ مَن في القُبورَ إلى يومِ النشور، يُدَبِّرُ الأَمرَ لا مُعقِّبَ لحكمِه.

فلنبدأ بتأمُّلِ الآيات.

يقولُ الله تعالى:

﴿فلمّا أن جاءَ البشيرُ أَلقاهُ على وَجْهِهِ فارتَدّ بصيراً قال أَلَمْ أَقُلْ لكم إِني أَعلمُ مِنَ الله ما لا تَعْلَمُون﴾.

في هذه الآيةِ لطائفُ عدة:

اللطيفة الأولى: في إِخفَاءِ هَوِيّةِ الذي أَلْقَى القميصَ على وَجْهِ يعقوبَ عليه السلام، وهذا من سُموِّ القرآنِ الكريمِ على كلامِ البشر، وأَهلُ اللغةِ والأَدب، يَعْرِفُونَ ذلك ويفرّقون:

فاتجاهُ الناسِ في سردِهم للقَصَص، يَغْلِبُ عليه حُبُّ إِظهَارِ أَشخاصِ قَصَصِهم وتَعْريفِهم، وهذا دَاخِلٌ في طبيعةِ تكوينِ النفسِ البشرية.

أمّا في القرآنِ الكريم: فإنّ سُمُوَّ الآياتِ يرتقي فوقَ التفاصيل، ويأْتي التركيزُ على إفادةِ القارىءُ والمستمعِ، من كُلِّ حرفٍ فيها، مع جماليةٍ لُغويّةٍ يتلاقَى فيها المبنَى مَعَ المعنى، في تَناسُقٍ تام.

فأَشارَ القرآنُ الكريمُ في هذا الآية، إلى حَاملِ القميصِ بكلمةِ: **﴿البشير﴾**، فجاءَتْ جميلةً غنية.

فلمْ تَشغَلِ القارىءَ بمعرفةِ هُويّةِ مَنْ حَمَل القَميص، والتفَتَ إلى النتيجةِ المُنْتَظرَةِ مِنْ فعلِ الإلقاء.

ولم تأْتِ جَافَّةً كقولِنا: ولمّا جاءَ الرسولُ، أو المكلَّف، بل جاءَتْ بصيغةِ الترغيبِ والتيسيرِ والتفاؤل، فقال: **﴿فلمّا أَنْ جاءَ البشير﴾**.

اللطيفة الثانية: في وقوفِنا عندَ دِقّةِ العبارةِ القُرآنية، في دِلالاتِ التعبير:

فلقدِ استعملَ يوسفُ عليه السلامُ صِيغةَ الجمع، احتراماً منه لِمَقَامِ أَبيه، حين أرسَلَ قمِيصه إذْ قال: **﴿اذهَبُوا بقميصِي هذا وأَلقُوه على وَجْهِ أَبي يأتِ بصيرا﴾**.

أمّا في الإِخبار، فجاءَتِ الصيغةُ بالمُفْرَد لشرحِ وَاقعِ الحال، وجاءَ الفعلُ بالارتداد لشرحِ واقعِ الحالِ أيضاً، فنسمعُ: **﴿أَلقاه على وَجهِهِ فارتدَّ بصيرا﴾**.

فتأَمّلْ أَخي المؤمن جَمالَ تَكَيُّفِ كلماتِ القرآنِ معَ مُناسَبةِ وُرودِها.

اللطيفة الثالثة: تأديبيةٌ تعليمية:

ذاكَ أنّ الحَدَث الحاصِلَ في هذه اللحظات معَ هذه الآية، حدثٌ عظيمٌ جلل:

فهو يَخْرِقُ المألوفَ في العادة.

وعودةُ البصرِ كرامةٌ كبرى، ومِنّةٌ عُظمَى.

ودليلٌ على عُلُوِّ مَكَانةِ يعقوبَ عليه السلام، عندَ الله تعالى.

ولو حَصَلَ هذا الأَمرُ معَ أَيِّ إنسان، لانطلَقَ فَرِحاً مَسْرُوراً لا يَلْوِي على شيء..

لكنّ يعقوبَ عليه السلام لا يَفْقِدُ اتِّزَانَه، بل يَشْكُرُ الله تَعالى على عظيمِ كَرمِه، وَيُقْبِلُ على أَهلِهِ واعِظاً داعياً، مُعَلِّماً مؤدِّباً فيقولُ لهم:

﴿أَلم أَقُلْ لكُم إِني أَعْلَمُ مِنَ الله ما لا تَعْلَمُون﴾ وهو بذلك يُعَلِّمُنا نحن ويقولُ لنا:

لا تَغُرّنَّكُمُ الحياةُ الدنيا وزِينتُها، وتَظُنُّوا ظاهرَ الحالِ هو الحقَ واليقين.

ولا يُصَيِّبَنَّكُمُ القنوتُ واليأس، فإِنَّ قُدرةَ الله تعالى أَعْلى من كيدِ الظالمينَ ومَكْرِهم.

وإنّ الله تعالى بِكُلِّ شيءٍ عليم، وعلى كُلِّ شيءٍ قدير.

لَئِنْ رأيتُمْ غَلَبةَ الباطِلِ في الظاهر، فإِنَّ أجلَ الله تعالى آت، ولقد انتظرَ أنبياءُ الله تعالى وأَصفياؤهُ مِنْ خَلْقِه، زَمَناً طويلاً قَبْلَ أنْ يأتِيَهُمُ الفَرَج، فَلْيَكُونوا لنا أُسوةً في صَبْرِنا على مَصاعبِ الدنيا، وقَسْوَةِ الظّالمين.

ثم يقولُ الله تعالى في الآيةِ الثانية، موضوعِ تأَمُّلنا:

﴿قالوا يا أَبانا استَغْفِرْ لنا ذُنوبَنا، إِنّا كُنّا خَاطِئين﴾.

في هذه الآيةِ لطيفتانِ اثنتان:

اللطيفة الأولى: في لَحْظِنا لاستمرارِ سَعْيِ الإِخوةِ في تَنْقِيةِ سَرائِرِهم، وطلبِ الصَفْحِ والمَغفرةِ من كُلِّ الذين أَساؤُوا إليهم.

ومَا طلبُهم من أَبيهم أَنْ يستغِفر لهم، إلا تعبيرٌ عَنْ طَلَبٍ مُزْدَوج، يتضَمَّنُ كبيرُه صغيرَه:

فهم يطلبونَ منه الصفحَ والعَفو والنزولَ عَنْ حَقِّهِ حِيالَهم.

بأنْ يَطْلُبوا منه أَنْ يَسْأَلَ الله تعالى أَنْ يَغْفِرَ لهم.

وتلك التفَاتَةٌ جميلة، تَدُلُّ على ذَكاءٍ وَصفاءِ سَرِيرة.

اللطيفة الثانية: في وُقوفِنا عندَ قولِهم: ﴿ذُنوبَنا﴾.

وهُمْ يُشيرونَ بذلكَ إلى أَنها أَكْثَرُ مِنْ ذَنْبٍ واحد، ونحن مِن خِلالِ قراءَتنا لآياتِ السورة، لم نَعْرِفْ عنهم إلا أَنهم أَذْنَبُوا ذَنباً واحداً: وهو إِلقاءُ يوسفَ عليه السلام في الجُبّ.

لكنَّ المدقِّقَ يَجدُ أَنهم فعلاً مُحِقُّونَ في تسميةِ ما فَعَلُوه ذنوباً:

➢ **فكانَ أَولُ الذنوبِ:** أنهم تآمروا على يوسفَ عليه السلامُ فيما بينهم يومَ أَنْ تَنَادُوا لإِبعَادِه.

➢ **وثاني الذنوب:** أَنهم أَظْهَرُوا محبةَ يوسفَ عليه السلامُ، أَمامَ أبيهم، بينما هُمْ له كَارِهُون.

➢ **وثالثُ الذنوب:** أَنهم أَخذُوا يوسفَ مُدَّعِينَ له الحِفْظ، بينما كانَتْ نيتهُمُ الإِهدَار.

➢ **ورابعُ ذُنوبِهم:** أَنهم أَلْقَوا طِفلاً صغيراً ضَعيفاً في غَيابَاتِ جُبٍ في أَرضٍ مُقْفِرة.

➢ **وخامسُ ذُنوبِهم:** أَنهم جاؤُوا على قميصِه بدمٍ كَذِب.

➢ **وسَادسُ ذُنوبِهم:** أَنهم كذبوا على أبيهم حين ادّعَوْا أنّ الذئبَ أَكلَه.

➢ **وسابعُ ذُنوبِهِم:** أَنهم ادّعَوْا أمامَ العزيز، أنّ يوسف عليه السلامُ سَرق.

➢**وثامنُ ذُنوبِهِم:** وأَشَدُّها هو ما خَلَّفوهُ مِنْ حُزنٍ شديدٍ في نفسِ أَبيهم، أدى إلى ذَهَابِ بَصَرِه.

فحَقٌّ لهم أن يقولوا: ﴿**يا أَبانا استَغفِرْ لنا ذُنوبَنا...**﴾

ثم يقولُ الله تعالى في الآيةِ الثالثةِ موضوعِ تأمُّلِنا:

﴿**قال سوفَ أستغفِرُ لكُم رَبِّي إنه هو الغفورُ الرحيم**﴾.

في هذه الآيةِ لطائفُ عدة:

اللطيفة الأولى: في وُقوفِنا عندَ دِقّةِ العِبارة، فيما ذَكَر يعقوبُ عليه السلام، إذْ قال: ﴿**سوفَ أستغفرُ لكُم رَبِّي**﴾.

ونعودُ فنتذكَّرُ ماذَا كانَ موقفُ يوسفَ عليه السلام، إِذْ طَلَبُوا منه العَفْوَ إِذْ قال: ﴿**يَغفِرُ الله لكُم..**﴾.

ونتساءَل: لماذا أَجَلَّ يعقوبُ عليه السلامُ طَلَبَ المغفرةِ مِنَ الله تعالى لهم؟

هَلْ ما زَالَ في نفسِه عليهِم مِنْ وَجد؟

ونجتهدُ مَعَ المُفَسِّرينَ بالتعليل:

لقَد كانَتْ أَذِيَّتُهُم ليعقوبَ عليه السلام، أَكْبَرَ منها ليوسف عليه السلام، وأَذِيةُ النفسِ أشَدُّ مِن إيلامِ الجِسْم.

ومعلومٌ أنّ رحمةَ الأَبِ بابنِهِ أَشَدُّ وأَقْوَى مِنْ رحمةِ الأَخ بأخيه.

ورغبةُ يعقوبَ عليه السلام، بحصُولِ المغفرةِ لأبنائه، تتجاوزُ مجردَ الطلبِ، وتصلُ إلى مَرْتبةِ التضَرُّعِ والاشتغالِ به.

وهو يرغَبُ بأنْ يكون في حالِ صفاءٍ وسكينة، وقيل: إنه انتظَر وَقْتَ السحر، لأنّ الدعاءَ فيه مُسْتَجاب.

فكانَ له ما كان، ونَعْلَمُ مِنْ موضعٍ آخرَ في القرآن الكريم، في سورةِ الأَعراف، أنّ الله تعالى استجابَ له، فغفرَ لهم، ورَفعَهُم إلى مرتبةِ الأنبياءُ.

اللطيفة الثانية: في معرفتِنا مباشرةً، أنه تنَازَلَ عَنْ حَقِّهِ الشخصي، وعَفا عنهم، بتعبيرٍ جميل، وإشارةٍ غيرِ مُباشِرة، إِذْ قال: ﴿**إنه هو الغفورُ الرحيم**﴾، وكأنه يقولُ لهم:

كيفَ لي ألا أعفُوَ عنكم، وأَنا أَطْلُبُ مِنَ الله تعالى في أحسَن ظروفِ دُعائي وتَضَرُّعي، أَنْ يَغْفِرَ لكم ويرْحَمَكُم.

والله تعالى هو الغفورُ الرحيم، ونحن نعرفُ أَنه يُجيبُ المُضْطَرَّ إِذَا دعاه، ويعفوَا عنِ السيئات.

ونُعَقِّبُ بقولِنا: يكفيكَ أَيها الإنسانُ الخاطىءُ أَنْ تُحْسِنَ التوبةَ إلى الله تعالى، وتَدْعُوَهُ صَادِقاً مُسْتَغْفِراً عَاقِداً العزمَ على عدمِ العود إلى ذَنبِكَ حتى تجدَ الله تعالى قريباً منك.

أَلم تسْمَعْ قولَ الله تعالى في الآية الخامسةِ والعشرين من سورة الشورى: ﴿**وهو الذي يَقْبَلُ التوبةَ عَنْ عبادِه ويعفو عن السيئات**﴾.

اللطيفة الثالثة: في استشعارِنا لحالِ السكينةِ والطُمَأْنينة، التي يَعِيشُها يعقوبُ عليه السلام في كلمةٍ واحدةٍ قالَها، وهو كلمةُ ﴿**رَبِّي**﴾ في قوله: ﴿**سوفَ أستغفِرُ لكُمْ رَبِّي**﴾، وهو تعبيرٌ عن ثقتهِ بالله تعالى، وشُعورِهِ بقُربه منه، ونحن بدورِنا نشعرُ بالغِبْطَةِ لهذه السكينةِ والطُمَأْنينة، ونسألُ الله تعالى أنْ يُبَلِّغَنا إيّاها، آمين.

مواطن الإسترشاد بالآيات في الحياة اليومية:

١ - للدلالة على أن الله تعالى قريب مجيب الدعاء، وإن على الإنسان أن لا يكتفي بالدعاء إلى الله تعالى له بالعفو والمغفرة، بل عليه أن يستسمح من أساء إليه، وأن يطلب منه أيضاً الدعاء إلى الله تعالى أن يغفر له، ونصل هنا إلى معنى جديد رائع من معاني صفاء القلوب بين العباد: أن تطلب ممن كان خصمك أن يكون حليفك في الدعاء إلى الله تعالى أن يظللكما معاً برحمته وعفوه ومغفرته.

٢ - للدلالة على أن حب الأب لأبنائه متأصل متجذر منغرس في أعماقه، وهذا سر من أسرار الله تعالى: فمهما كانت قسوة الأبناء على الآباء شديدة ومتمادية، فليس أسرع من قلب الآباء صفحاً وعفواً، ولو أدرك الأبناء عظمة هذا السر لما وقع ولد في جرم العقوق.

ثم يقول الله تعالى:

﴿فَلَمَّا دَخَلُوا۟ عَلَىٰ يُوسُفَ ءَاوَىٰٓ إِلَيْهِ أَبَوَيْهِ وَقَالَ ٱدْخُلُوا۟ مِصْرَ إِن شَآءَ ٱللَّهُ ءَامِنِينَ ﴿٩٩﴾﴾.

[رقم الحلقة على القرص المدمج: ٧٣]

تنتقلُ بنا هذه الآيةُ أخي المؤمن إلى مَشهدٍ جديدٍ منْ مشاهدِ قصةِ يوسفَ عليه السلام، وهذا المشهدُ سيكونُ المشهدَ الأَخير، يَحْصُلُ فيه جمع شَمْلِ العائلة، وتَحقُّقُ رؤيا يوسف عليه السلام التي بها بدأتِ القصة، فتكونُ بذلك قد استدارَتْ على ما حَوَتْ منْ عظيمِ الأَحداثِ والتقلُّبَاتِ والتأَزُّمَات، وهذا هو الأَسلوبُ الأَجملُ في السرد.

يقول الله تعالى:

﴿فلمّا دَخَلُوا على يوسف آوى إليه أبويه﴾.

في هذا الشطرِ منَ الآية لطائفُ عدة:

اللطيفة الأولى: في ملاحظتِنا من جديد لهذا الانتقالِ السريعِ إلى مِصْر، دونَ الحاجةِ إلى الإعلامِ بحصُولِ السفر، وهذا ما اعتَدْنَا عليه في تنَقُّلِ إخوةِ يوسفَ عليه السلامُ في رِحْلاتِهِمُ المُتَكَرِّرَة، وهذه رابعُ رحلةٍ تَحْصُلُ منذُ بدءِ القَحْط، وأُسلوبُ السردِ القرآنيُّ يَسْمَحُ لنا بمتابعةِ التنقُّلِ معَهم دونَ عناء، وفي هذا مُشَارَكَةٌ ذهنية من القارئِ والمستمعِ لأحداثِ القصة، تُكَرِّسُ تفَاعُلَه، وتَجْعَلُه في قَلْبِ الحدث..

اللطيفة الثانية: في ملاحظتِنا لافتتاحِ المشهدِ بقولِ الله تعالى: **﴿فلمَّا دَخلُوا﴾** وكُنّا قد أشرْنَا إلى تَرابُطِ مَشاهدِ القصةِ بعلاماتٍ مُمَيِّزَة: بالغةِ الأهمية، تُعطي الأُسلوبَ القرآنيّ في السردِ جماليةً فريدة وما تَكْرَارُ عِبارةِ: **﴿فلمّا دَخلُوا﴾** عند بَدْءِ كُلِّ مشهد، إلا تكريسٌ لهذا المبدأ..

اللطيفة الثالثة: في متابَعَتِنا للأُسلوب القرآنيّ في إيلافِ السَمْع، ففي الآية التاسعةِ والستين، أرادَ يوسفُ عليه السلام، أَنْ يُكْرِمَ أَخاه الأَصغر، فجاءتِ الآيةُ تقول: **﴿ولمّا دَخَلُوا على يوسفَ آوى إليه أَخاه﴾** فارتاحتِ الأُذُنُ لهذا التعبير، لِمَا في كلمةِ آوى مِنْ معَاني الاحتضانِ والضَمِّ والحُنوِّ والعَطْف.

ثم إنه في الآية، موضوعِ تأمُّلِنا، أرادَ يوسفُ عليه السلامُ أَنْ يُكْرِمَ أَباه، ولحاجةِ نفسِ المستمعِ والقارئِ إلى المحافظةِ على المستوى ذاته مِنْ راحةِ الأذن، جاءَتِ الآيةُ تقول: **﴿ولمّا دَخَلُوا على يوسفَ آوى إليه أبويه﴾.**

ثم يقولُ الله تعالى في الشطرِ الثاني مِنَ الآية:

﴿وقالَ ادخُلُوا مِصْرَ إن شاءَ الله آمنين﴾.

في هذا الشطر منَ الآيةِ لطائفُ عدة:

اللطيفة الأولى: في تساؤلنا عن سببِ تَكْرَارِ عِبارةِ الدُّخول، وكُنَّا قَدْ سَمِعْنَا في بدايةِ الآية: **﴿فلمّا دَخلُوا على يوسف﴾.**

وجوابه:

السببُ الأولُ: للضَّرورةِ الُلغوية، وجماليةِ أُسلوبِ السردِ كَما ذَكَرْنا بإتمامِ افتتاحِ المشهدِ بما يتناسَقُ وتعابيرِ افتتاحِ المشاهدِ السابقةِ.

السبب الثاني: هو أنّ الدخولَ الأوّلَ حَصَل على مجلسِ يوسفَ عليه السلام، وقد ذكَرَ المُفَسِّرون أنّ يوسفَ عليه السلام، إكراماً لقدومِ أبيه، وإعلاءً لِقَدْرِهِ، وأدباً وتواضعاً، انطلقَ إلى خراجِ المدينة، واصطَنَعَ لِنَفْسِهِ مَجْلساً، فلمّا وَصلَ الأَبُ وأَفرَادُ العائلة، دَخلُوا على يوسفَ عليه السلام، فاستقبَلَهُمْ وأَحْسَنَ استقبالَهم، وضَمَّهُمْ إليه، ثم قالَ لهم: **﴿ادْخُلُوا مِصر﴾.**

السبب الثالث: هو أنّ دُخولَهم على يوسفَ عليه السلام، كانَ دخولَ وَفْدٍ على مُضِيف، كما يَدْخُلُ الزائرُ على صَاحبِ الدار، وهذا هو المقصودُ بالدُّخولِ الأَوَّلِ بقولِهِ تعالى: **﴿ولمّا دَخَلُوا على يوسف﴾.**

أمّا وقَدْ حصَلَ هذا المجلس، وهو مجلسُ الاستقبالِ، فإنّ دعوةَ يوسُفَ عليه السلامُ، أَهْلَهُ بالدُّخولِ إلى مِصْر، هي دعوةُ مُكُوثٍ واستقرار، فجاءَ الدخُولُ الثاني بمعنى الإقامةِ والثَّبَات.

اللطيفة الثانية: في ملاحظتِنا لدِقة العبارةِ في قولِ يوسفَ عليه السلام: **﴿ادخُلوا مِصْرَ إنْ شاءَ الله آمنين﴾**.

لقد علَّقَ حصولَ الأَمنِ على مَشِيئَةِ الله تعالى.

والنّاظرُ إلى واقعِ الحالِ في هذا الوقت، يَسْتَغْرِبُ هذا التعليق:

فيوسفُ عليه السلام، هو عزيزُ مِصْر، وهو الآمرُ والناهي، وسيُنْزِلُ أهلَه منزلةً عزيزةً كريمة، يَضْمَنُ لهم فيها رَغَدَ العيشِ وطُمَأْنينَةَ البال، وراحَةَ المنزلِ، وكريمَ الحياة وطَيِّبَ الطّعَامَ، ووثير الفِراش، والأمنَ من الخوفِ والجوعِ والعطش.

ولنْ يكونَ من يُقْلِقُ عليهم راحَتَهم، وكُلُّ مَنْ في مِصْرَ يَطْلُبُ رِضى العزيز..

لكنَّه مَنْهَجُ الأَنبياءِ والرُّسلِ الكِرام، في دَوامِ مُراقَبَتِهم لقضاء الله تعالى وقَدَرِه. والمسألةُ على جانبٍ عظيمٍ من الأَهميةِ، نتوقفُ عِنْدَها لِنتعلَمَ مِنها:

لم يَدَعْ يوسفُ عليه السلام، ما وَصَلَ إليه مِنْ عِزٍ وَجاهٍ ورِفعَةٍ وسُؤدَد، يُؤَثِرُ على يقينهِ بقَضَاءِ الله تعالى، في إنفاذِ أَمرهِ على مَرِّ الأيام، من تَقَلُّبِ الأحوالِ على الخَلْق، بينَ صعودٍ وهُبوط، وغنىً وفَقْر، وقوةٍ وضَعْف وهو يَعْلَمُ أَنه حتى وإِنْ كان في مَرْتَبَةِ النُّبوة، فإنّ أحكامَ الله تعالى تَجْري على كُلِّ الخَلْق، حتى على المؤمنين الصالحين الطائعين، حتى على الأنبياءِ والمُرْسَلِين، فلم يَضْمَنْ لَهُمُ الأمنَ لا في حياتهِ ولا بعد مماته مِنْ بَعْدِهِ، لذلك قال لهم: **﴿ادخُلوا مِصْرَ إن شاءَ الله آمنين﴾**.

ولقد صدَقَ ظَنُّه وكان مُصِيباً في عدمِ ضَمانِه، ونحن نَعْرِفُ الآنَ مِنْ مَجرياتِ التاريخ، أنّ بني إسرائيلَ لم يَدُمْ لهُمُ الأَمنُ في مِصْرَ زَمناً طويلاً بعدَ يوسفَ عليه السلام، ولقد تَعَرّضُوا في مِصْرَ على أيدي الفراعنة إلى أشَدِّ أنواعِ

العذابِ والتنكيل، واستُعْبِدُوا وأُوذُوا حتى بَعَثَ الله تعالى فيهِم مُوْسى عليه السلام، لِيُخْرِجَهم من أَرضِ مِصْرَ..

وقد مرَّ معنا في تأمُّلنا لآياتِ هذه السورة قولُ يعقوبَ عليه السلامُ لأبنائِهِ حينَ أرسلَ معَهُم ابنَهُ الأصغر، وأَوْصَاهُم بالحِرْصِ والاحتياطِ والحَذر، إِذْ قالَ مُعَقِّباً: **﴿وما أُغني عَنكُم مِنَ الله مِنْ شيء﴾**.

ولقد أوضَح لنا الله تعالى المنهجَ العَام لِنَسْلُكَهُ في حياتِنا وآمالِنا وتَخْطِيطِنا في الآيتين الثالثةِ والعشرين، والرابعة والعشرين مِنْ سورةِ الكهف إِذْ نَقرأ: **﴿ولا تَقُولَنَّ لشيءٍ إِنِّي فاعلٌ ذلك غداً ﴿٢٣﴾ إلا أَنْ يشَاءَ الله واذْكُرْ رَبَّكَ إذا نَسِيتَ وقُلْ عسى أَنْ يهْدِيَنِ رَبِّي لأَقْرَبَ مِنْ هذا رَشَدًا ﴿٢٤﴾﴾**.

وكم جميلٌ مِنّا أَنْ نتوَّقَف لِنتأمَّلَ مَوْقِعَنَا مما حَمَلَتْهُ إلينا الآيَةُ الكريمة.

فالقرآنُ الكريمُ نَزَلَ بعدَ زمنٍ طويلٍ جداً على حصُولِ قِصةِ يوسفَ عليه السلام، وهو يُخبِرُنا بما قالَ يوسفُ عليه السلام: **﴿ادْخُلُوا مِصرَ إن شاءَ الله آمنين﴾**.

وقبلَ نُزولِ القرآنِ الكريمِ بزمنٍ طويلٍ جداً أيضاً، حَصَلَ تَبَدُّل حالِ بني إسرائيلَ في مِصْرَ منَ الأمنِ إلى الاضْطِهاد، وقد أخبرنَا القرآنُ الكريمُ عن هذا الواقعِ أيضاً.

ولقد شاءَ الله تعالى أَنْ يُثْبِتَ قولَ يوسفَ عليه السلام بالدّعاءِ بالأمنِ لأهلهِ، تعليماً لنا وإرشاداً بأنّ الله تعالى سَنّ سُنَنَه في الكونِ وَأَرْسَاها، وقَضَى قَضَاءَه وقَدّرَه، وتَرَكَ الخَلْقَ يَتقلّبُونَ في الأرض وأجّلَ لهُمُ الحِسابَ إلى يوم الدِين، وهو يَعْلَمُ المُفسدَ مِنَ المصْلحِ، ويُخْبِرُنا عَنْ صَلاحِ الصَالح، وفَسادِ الفاسد.

ونحن في مَحطةٍ مِنْ مَحطَّاتِ الزمن، نتأمّلُ أُمنيةَ يوسفَ عليه السلام، بدوامِ الأَمنِ لقومهِ في مِصْرَ، ونَعْلَمُ أنّ الأَمنَ لم يَدُمْ لَهُمْ طويلاً، ونُدْرِكُ أَنّ قضاءَ الله تعالى ماضٍ كما شَاءَهُ الله تعالى، لا يُغَيِّرُه شيءٌ، فَنسُوقُ هذه الحقيقةَ

على واقِعنا المُعَاش، ونُدْرِكُ أنَّ هذه المِحَنَ المتتالية علينا، بعضٌ مِنْ قضاءِ الله تعالى، وأنّ دوام الحال من المحال وكُلّ حالٍ إلى زَوال، وستَزولُ الشِدَّةُ بإذنِ الله تعالى.

اللطيفة الثالثة: في تأمُّلِنا لهذا التغييرِ الشديد، الذي سيَطرَأُ على حياةِ يعقوبَ عليه السلامُ وأولادِه بانتقالِهم إلى مِصْر:

فهم يَتْرُكُونَ بيئةً بَدَوِيّةِ مَعَ كُلِّ ما تُمَثِّلُهُ مِنَ ارتباطٍ بالأرضِ، وقُربٍ مِنَ الطبيعةِ، والاهتمامِ بالأنْعَامِ، وعدمِ الثباتِ في موقعٍ واحد، والشعورِ الدائمِ بالحرية.

ويستقبلونَ حياةَ المدنية مَعَ كُلِّ ما تُمثِّله من انجذابٍ إلى الموقعِ الواحد، وبُعْدٍ عنِ الطبيعة، وتغييرٍ في نمطِ الحياةِ، والتعرفِ إلى طبائعَ جديدة، ووسائلَ مَعِيشةٍ مختلفة، وبيوتٍ مبنيةٍ، وشوارعَ وطرقاتٍ وأَزِقّة.

وسَيشيرُ يوسفُ عليه السلام إلى هذا الأمرِ في لاحقِ الآيات.

مواطن الإستدلال بالآية في الحياة اليومية:

١ - للدلالة على أن الأحوال تتبدل على الناس، أما صعوداً وأما نزولاً. فكم من صاحب مال ونفوذ، دارت به الأيام فسحبت ما بين يديه من مال وتركته فقيراً معدماً، وكم من معدم فتح الله تعالى عليه من بركة فضله، فأقبلت عليه الدنيا ضاحكة مستبشرة، وليعلم هذا وذاك، أن هذه الحال لن تدوم عليه طويلاً فليخشى الله تعالى فيما آتاه، وليرض بما قسمه له، وليقنع بما قدره عليه.

٢ - للدلالة على أن أمنية الإنسان بدوام الأمن لا ترقى إلى درجة اليقين أبداً. ذاك أن سنة الله تعالى في الناس في الحياة الدنيا أنها دار امتحان وابتلاء، وما هي دار قرار، والتاريخ يقول لنا أنه ما نعمت أمة بالأمن دائماً أبداً.

ثم يقول الله تعالى:

﴿وَرَفَعَ أَبَوَيْهِ عَلَى ٱلْعَرْشِ وَخَرُّوا۟ لَهُۥ سُجَّدًا ۖ وَقَالَ يَـٰٓأَبَتِ هَـٰذَا تَأْوِيلُ رُءْيَـٰىَ مِن قَبْلُ قَدْ جَعَلَهَا رَبِّى حَقًّا ۖ وَقَدْ أَحْسَنَ بِىٓ إِذْ أَخْرَجَنِى مِنَ ٱلسِّجْنِ وَجَآءَ بِكُم مِّنَ ٱلْبَدْوِ مِنۢ بَعْدِ أَن نَّزَغَ ٱلشَّيْطَـٰنُ بَيْنِى وَبَيْنَ إِخْوَتِىٓ ۚ إِنَّ رَبِّى لَطِيفٌ لِّمَا يَشَآءُ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ ﴿١٠٠﴾﴾.

[رقم الحلقة على القرص المدمج: ٧٤]

نصلُ معَ هذه الآيةِ أخي المؤمن إلى النهايةِ السعيدةِ التي طَالَ انتظارُها وفيها صَدَقَ الله تعالى نبيّه يوسفَ عليه السلام الرؤيا، وحَقَّقَ له ما وَعَدَهُ فيها مِنْ إعلاءِ الشأنِ، واجتماعِ الأُسرةِ في كَنَفِه..

فلنبدأ بتأمُّلِ الآيةِ الكريمة:

يقولُ الله تعالى: **﴿ورَفَعَ أَبويهِ على العرشِ وخَرُّوا له سُجداً وقال يا أَبتِ هذا تأويلُ رُؤيَاي مِن قبلُ قَدْ جعَلها رَبِّي حَقًّا﴾ في هذه الشَطرِ مِنَ الآية، لطائفُ عدة:**

اللطيفة الأولى: في وقوفِنا عندَ قولِهِ: **﴿ورَفَعَ أبويه﴾**.

ونحن، على مَدارِ القِصة، لم نَسْمَعْ شيئاً عنْ أُمّه، وقد تُصِيبُنا الدَّهشَةُ إذْ نتساءَل: لِئَنْ كانَ الأَسَى والحزنُ الذي عصَفَ بيعقوبَ عليه السلام على فَقْد يوسفَ عليه السلامُ بهذا الكَمِّ الهائل، فالأَوْلَى به أَنْ يكونَ بمقدارِ إضعَافِه في قَلْبِ أمّه، ولم تَظْهَر إطلاقاً في أيِّ مِنْ مشَاهدِ القِصّة؟

الجوابُ هو أنّ أُمَّهُ التي وَلَدَتْهُ كانَتْ قد توفِّيتْ منذُ زَمنٍ بعيدٍ بإجماع المفسرين حتى قبل أن ينتَزِعُوهُ مِنْ أبيه، والمعنية والمشار إليها في الآيَة الكريمة، هي خالتُه زَوْجُ أبيهِ التي تُنَزَّلُ تُنزِلَة الأمِّ في حَقِّ يوسفَ عليه السلام.

اللطيفة الثانية: في وُقوفِنا عندَ تَصرُّفِ يوسفَ عليه السلام، برفعِ أَبويه على العرشِ، وهو يُعَلِّمُنا كيفَ يكونُ الابنُ بارّاً بوالديهِ.

فعرشُ المُلْكِ هو المكانُ الذي أعَدّهُ إجماعُ الناسِ في قَناعَاتِهم لرفعِ مَليكِهم فوقَ مُسْتَوَاهُم، تعبيراً منهم عنْ عُلوِّ مَكَانتِه عليهم، وخُضوعاً لأوامرِهِ ونَواهِيهِ في تَصْرِيفِ أَعمالِ حياتِهم.

ولئن جلسَ عليه يوسف عليه السلام، فذاكَ لأنه حَظِي بالمكانةِ اللائقةِ لهذا المَنصِب، وارتَضَى الناسُ بِرفْعِهِ عليهم.

فإذا به يَرْفَعُ أَبويهِ على العرش ويُجْلِسُهما مَكَانَه، وهو بذلك يقومُ بالتعبيرِ الماديّ، الحسيِّ الملموس عَنْ عَميقِ حُبِّهِ لهما، واحترامِه لهما، رافعاً إيّاهُما فوقَ كُلِّ ما وصَلَ إليه مِنْ رِفْعَةٍ وسُؤدَد، ولنا في أنبياءِ الله تعالى ورُسلِه خيرُ أُسوة، فعلى كُلِّ واحدٍ منا أنْ يُكْرِمَ أَبويه بمقدارِ ما أعطاهُ الله تعالى مِنْ تَمكُّن.

اللطيفة الثالثة: في تَساؤُلِنا عَنْ مَعْنَى وسببِ السُجودِ ليوسفَ عليه السلام. ونقولُ بدايةً، وبإجماعِ المُفَسّرين قاطِبَةً، لم يَكُنِ السُجُود ليوسفَ عليه السلام سجُودَ عِبادةٍ إطلاقاً، حاشَا وكلا.

لكنّه كان انحناءَ تحيةٍ وتقدير.

ولنا أنْ نتوَقف قليلاً عندَ هذه النُّقطة:

يقولُ رسولُ الله ﷺ: «**إنما الأَعمالُ بالنيات**».

قد نَرى تصرُّفاً أوْ نَسْمَعُ قولاً من شخصٍ يبدو لنا فيه شُبهةُ خروجٍ عَنْ مَنهَجِ الدِّين، فليس لنا أَنْ نُسارعَ باتهامِه بقَصدِ الخروجِ عَنْ مَنهجِ الدين، بل نُسارعُ إلى الاستفهامِ منه عَنْ قَصْدِهِ، ونَنبهه إلى وجوبِ تصويبِ قولِهِ وإيضاحِهِ، وتبديلِ تَصرُّفِهِ وتَحْسِينِه مُلْتَمسين له العُذْر، باحثِينَ له ولنا عَنْ أفضلِ التصرُّف وأفضلِ الكلام، بمحبةٍ ووُدٍّ وأُلفَة، راجينَ له الخيرَ كُلَّه، داعينَ له بالسَدادِ والصّواب.

اللطيفة الرابعة: في مُلاحظتِنا لأُسلوبِ الكلامِ الجميلِ العَذْبِ الذي اعتَمَدَهُ

يوسفُ عليه السلام بمخاطبةِ أبيه يعقوبَ عليه السلام: ونَادَاهُ بقوله: ﴿يا أبتِ﴾ والمعنى يَتِمُّ بدونِها، وهذا مستوىً ثانٍ في الآيةِ الواحدةِ في بِرِّ الوالدين.

اللطيفة الخامسة: في مُلاحظتِنا لتطابُقِ قَضاءِ الله تعالى معَ الأعمالِ التصرفيةِ الإراديةِ التي يقومُ بها العِباد، في سِرٍّ خَفِيٍّ يَصْعُبُ علينا إدراكُ كُنْهِه حقاً:

فلقدْ قضَى الله تعالى منذُ الأزَل، أنّ الإخوةَ مع الأَبوين سيخِرُّونَ سُجداً ليوسفَ عليه السلام في هذا الموضع بالذّات وفي هذا التوقيتِ بالذات.

ولقد أُعْلِمَ يوسفُ عليه السلام منذُ أنْ كان صغيراً، بحصولِ هذه الواقعةِ مُسْتَقْبلاً في حقِّه، بمُوجَبِ رُؤيا ثابتة قَصّها على أبيه يعقوبَ عليه السلام.

وحينَ اجتمعَ يوسفُ عليه السلام مع أبويه وإخوتهِ، وحينَ رفَعَ أبَويهِ على العرش، قامَ الجميعُ بتصرُّفٍ إرادي جَماعيٍّ دون طلب منه بالإنحناء إكباراً وتقديراً، فتطابق الفعل الإرادي مع القضاء، وفي هذا إيذانٌ وإعلامٌ عن خُضوعِ كُلِّ ما في الكونِ لمشيئةِ الله تعالى وسُنَنهِ التي أجْرَى على خَلْقِهِ.

ثم يقولُ الله تعالى على لسانِ يوسفَ عليه السلام:

﴿وقد أحسنَ بي إذْ أخرجَني مِنَ السِجْنِ وجاءَ بكم من البَدْو بعدَ أنْ نَزَغَ الشيطانُ بيني وبين إخوتي، إنْ ربي لطيفٌ لما يشاء، إنه هو العليمُ الحكيم﴾.

في هذا الشطرِ منَ الآيةِ لطائفُ عدة:

اللطيفة الأولى: في متابعتِنا لأُسلوبِ المناجاةِ العلنية، والشُكرِ الهادىءِ من يوسفَ عليه السلام وهو في أَعلى حالاتِ الحُبورِ والثناءِ في انتقاءِ جميلٍ وفريدٍ للعبارات فنسمعُه يقول: **﴿وقد أحسنَ بي﴾**، ويقولُ: **﴿وجاءَ بكمْ﴾**، ويقولُ: **﴿إنّ ربي لطيفٌ لما يشاء﴾**.

هذا الكلامُ اللطيفُ الرائعُ الراقي، لا نَسْمَعُه اليومَ منْ حُكّامِ اليوم في شكرِ الله تعالى والثناءِ عليه، ونحن وَهُم في أمسِّ الحاجةِ إليه.

اللطيفة الثانية: في ملاحظتِنا لتوقُّدِ ذكاءِ يوسفَ عليه السلام، إذْ اعتَمَدَ أُسلوبُ: لكل مقامٍ مقال.

وبتتبُّعِ كلامهِ في هذه الآية، نَجِدُ أنه عليه السلام ذكَرَ فضائِلَ الإخوة، ولم يَذْكُر مثالبَهُم، فتجاوزَ في سَرْدِه كُلّ الإساءاتِ التي فَعَلوا مِنْ نَزْعِه مِن أبيه في صِغْرِهِ وإلقائِهِ في الجُبّ وتَرْكِه في العراء.

بل توسَّعَ في تَجَاوُزِهِ للإساءَاتِ، فلم يذْكُر إساءَةَ امرأَةِ العزيز له.

أكثَرُ من ذلك: لم يَعْتَبِر إساءَةَ الإخوةِ له من صُنْعِهِم، بل لم يَعْتَبِرْ أنّ إساءَتَهم له جاءَت نتيجةَ قَبولِهم لوَسْوَسَةِ الشيطانِ لهم، وهذا مُستوىً أعلَى في إيجادِ العُذْرِ لهم.

وإنما ارتَقَى إلى مُسْتَوىً أَعلى في مُواساتِهم إذْ اعتبَرَ أنّ نَزْغَ الشيطانِ وقَفَ حائِلاً بينَه وبينَ إخوتِهِ، وهو الذي أدَّى إلى حصولِ الإساءةِ.

لا أجدُ مثالاً أجملَ من هذا المِثالِ في العفوِ والصفحِ عندَ المقدرةِ.

اللطيفة الثالثة: في تأمُّلِنا لجمالِ المعنى الواردِ في قَولِ يوسفَ عليه السلام: ﴿**إنّ ربّي لطيفٌ لما يشاء**﴾.

وهو بذلك، يختَصِرُ كُلّ التساؤُلاتِ عن كيفيةِ مسارِ الأحْدَاثِ حتى وصلت إلى نهايتِها السعيدةِ تلك.

والمقصودُ: أنّ الله تعالى عالمٌ بخفايا الأُمورِ كُلِّها، وهو المدَّبرُ لها، المُسَهِّلُ لِصعَابِها، فإذا شاءَ أن تَنفُذَ مَشِيئَتُه، أرسلَ لُطْفَهُ على الأَشياءِ والأَحداثِ والأشخاصِ، فتلينُ الصعاب، وتُحلُّ العُقَد، وتهونُ المصائب، وينقَطِعُ دابِرُ النّزْغ، وتَصفُو القُلوب، وتزُولُ الضغائن.

نسأَلُ الله تعالى اللُّطْفَ في كلِّ الأُمور.

مواطن الإسترشاد بالآية في الحياة اليومية:

١- للدلالة على وجوب تكريم الأبوين أعلى تكريم ممكن بحسب القدرة والإستطاعة: فمن كان قليل المال ضعيف المؤونة، أكرمهما بجهده البدني والكلمة السمحة الطيبة، ومن كان كثير المال واسع النفوذ، أكرمهما بأن يجعل حياتهما هانئة رغيدة، وأن يقوم على راحتهما ويتطوع لخدمتهما بنفسه، فهو لن يجد أفضل منهما في هذه الدنيا، بعد رضى الله تعالى، رضى يطلبه.

٢ - للدلالة على أن كل شيء بقدر، فلا حركة ولا سكون، إلا بأمر الله تكون، ولقد ننتظر حدثاً ما، أياماً طويلة، وهو مكتوب مؤجل للأجل الذي أقته الله تعالى له، فليس لنا أن نلجَّ ونستعجل حصول الأحداث، بل نتيقن بأن الأمور كلها سائرة إلى ما قدّر الله تعالى.

ثم يقول الله تعالى على لسان يوسف عليه السلام:

﴿رَبِّ قَدْ ءَاتَيْتَنِى مِنَ ٱلْمُلْكِ وَعَلَّمْتَنِى مِن تَأْوِيلِ ٱلْأَحَادِيثِۚ فَاطِرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ أَنتَ وَلِىِّۦ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِۖ تَوَفَّنِى مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِى بِٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١٠١﴾﴾.

[رقم الحلقة على القرص المدمج: ٧٥]

تأخُذُنا هذه الآيةُ أخي المؤمن إلى قِمَّةِ التسليم والتوكُّلِ والاعترافِ بفضلِ الله تعالى، وإنها بحقّ آيةُ الولاءِ المُطْلَقِ لله تعالى، أجْراها الله تعالى على لسانِ يوسفَ عليه السلام، لِتَبْقَى نابِضَةً على مَدى الأزمانِ والدهور، وهي لسانُ حالِ كُلِّ المؤمنينَ المُعْتَرفينَ بفضلِ الله تعالى ونِعْمَتِهِ عليهم، مهما تفاوتَتْ دَرجاتُ الفضل والنِّعمة، فعلينا أَنْ نتعلَّمَها ونَحْفَظَها، ونُعَلِّمَها أبناءَنا، ونتَدَبَّرَها ونعملَ بها.

فلنبدأ بتأمُّل الآيةِ الكريمة.

يقولُ الله تعالى على لسانِ يوسفَ عليه السلام:

﴿رَبِّ قد آتيتني مِنَ المُلْكِ وعلمتَني من تأويلِ الأحاديث﴾.

في هذا الشطر منَ الآية، لطائفُ عدة:

اللطيفة الأولى: في تأَمُّلنا لِوَاقِع حالِ يوسفَ عليه السلام في هذه اللحظاتِ مِنَ القصة، إذْ وقَفَ يدعُو الله تعالى:

فلقدِ انطلَقَ مِنْ غَياهِبِ السِجنِ بصفةِ فتى العزيزِ المُشْتَرَى، فأخرَجَهُ الله تعالى منَ السِجْنِ، ورفَعَهُ فوقَ النَّاس، وأَوْصَلَهُ إلى أَرْفعِ مَنْصِبٍ في زَمانِه مع شِدّةِ حاجةِ الناسِ إليه، مما يُضَاعِفُ أهميةَ المكانةَ المرموقةِ التي وصَلَ إليها..

إلا أنه كان لا يزالُ في نفسِه وَجْدٌ على فِراقِ أَبيه، وأَحوالِ إخوتهِ في المسلكِ الوَعِرِ الذي سَلَكُوه معه..

فكانَ أنْ أَتَمَّ الله تعالى عليه الفضلَ، بأنْ جَمَعَهُ بأبيه، وأَصلَحَ له إخوتَهُ، فاجتمعَ له كلُّ ما يُريدُ مِنَ الهناء.

فامتلأتْ نفسُه رِضىً وطُمأنينة، وأرادَ أنْ يُعَبِّرَ عن امتنانِه لله تعالى وشُكْرِهِ له، فبدأَ بِتَعْدَادِ فضْلِ الله تعالى عليه..

وفي هذا تعليمٌ لنا وإرشاد.

اللطيفة الثانية: في مُلاحظتِنا لتواضُعِ يوسفَ عليه السلام إِذْ قالَ على سبيلِ التبعيض: **﴿آتيتني مِنَ المُلْك وعَلّمْتَني مِنْ تأْويلِ الأحاديث﴾.**

وهو بذلك يُعْلِنُ أنه لم يُحصِّلْ كُلَّ أسبابِ المُلك، أو أَنه، وإنْ مُلِّكَ على مِصْر، أَهمّ بلدٍ في زمنه، فإنه لم يُمَّلك على كُلِّ الأمصار..

وهو بذلك يُرَبِّي نَفْسَهُ على التواضعِ لله تعالى.

وكذلك قولُه: ﴿علمتني من تأويلِ الأحاديث﴾.

وتأويلُ الأحاديثِ بابٌ واسعٌ جداً، وأصنافُ التأويلِ عديدة، نذكُر منها:

معرفةُ تعبيرِ الرُّؤى.

وتفهيمُ غَوامِض أسرارِ الكُتبِ الإلهيةِ.

وتفهيمُ دقائقِ سُنَنِ الأَولياء.

وفهمُ أسرارِ الإشاراتِ.

وإدراكِ كُنْهِ الكراماتِ.

ولقد آتاهُ الله تعالى بعضاً منها، وهي معرفةُ تعبيرِ الرُّؤى، ونجدُه عليه السلام، يُتابعُ دِقّة أبيهِ يعقوبَ عليه السلام في الكلام.

وقد سمعناه يقولُ في أَولِ السورةِ في الآيةِ السادسة: **﴿وكذلك يَجْتَبِيكَ رَبُّكَ ويُعَلِّمُكَ مِنْ تأويلِ الأحاديث﴾**.

اللطيفة الثالثة: في وُقوفِنا عندَ مغْزَى تفصيل النِّعْمَتين بهذا الأُسلوب الذي ورَدَ في الآية.

فلقد قال: **﴿ربِّ قد آتيتني مِنَ المُلْك﴾**: وهي النِّعمةُ الأُولى.

﴿وعلمتني من تأْويلِ الأحاديثِ﴾: وهي النعمةُ الثانية.

أما النعمةُ الأُولى: فتأتي في بابِ الإكرامِ الماديِّ الدُّنيوي، وهذا ما يَطْمَحُ إليه الناسُ في دُنياهِم، لكنّ يوسفَ عليه السلام، يُعطينا المِثالَ الرائعَ حَوْلَ كيفيةِ التعامُلِ معَ هذه النِعمة، بأن أَخَذَها تكليفاً، وأَدّاها حقّها بأمانةِ وصِدقِ وعدلِ وإحسان، وخوفِ ورَجَاء..

وما أحوجَ أَهلَ الحكمِ على مَرِّ التاريخ أنْ يتعلّموا مِنْ يوسفَ عليه السلامُ كيفَ يكونُ الحاكم.

وأَما النعمةُ الثانية: فهي نعمةٌ ذِهنيةٌ عقليةٌ معنوية، لا تَمُتُّ إلى الواقع الماديّ الدنيويّ بصلَةٍ مُباشرة، وهنا أيضاً أحسَنَ يوسفُ عليه السلامُ استعمالَها، فما أَعملها إلا في الخير، وما أَفادَ مِنْها إلا للخير، وعلى مِثالِها نَسوقُ فضلَ الله تعالى، بما يُعطِي عِبادَه من مواهبَ عقليةٍ ذِهنيةٍ أو ذوقيةٍ، أو مهاراتٍ صوتيةٍ أو حِرَفِيّة. .

وعلى هؤلاء أنْ يَقْتَدُوا بيوسفَ عليه السلام، في حسنِ استعمالِ مواهبِهم، وأنْ يَشْكُروا خَالِقَهُمْ على ما أعطاهُمْ من مَوَاهِبَ وفَضَّلَهُم على إخوانهم، فلا يجعلُوا مِنْ هذه المواهبِ سبباً للمعصية وباباً يَلِجُونَ منه إلى المَفَاسِدِ والمُحَرَّمات فيفتحون بذلك على أنفسِهم باباً إلى النار. .

ثم يقولُ الله تعالى في الشطرِ الثاني من الآية على لسانِ يوسفَ عليه السلام:

﴿فاطرَ السمواتِ والأرض أنتَ وليي في الدنيا والآخرة توَفنِي مُسلماً وألحِقْنِي بالصالحين. .﴾.

في هذا الشطر من الآية، لطائفُ عدة:

اللطيفة الأولى: في ملاحظتِنا لتصاعُدِ وتيرةِ الدعاء، وذلك على أربعِ مراحل:

المرحلة الأولى: بذكْرِ فضلِ الله تعالى الماديِّ عليه بقولهِ: **﴿رَبِّ قد آتيتني من المُلْك﴾**.

المرحلة الثانية: بذِكْرِ فَضْلِ الله تعالى المعنويِّ الذهنيِّ عليه وهذه مرتبةٌ أَعْلى وأرقى بقوله: **﴿وعَلَّمْتَنِي مِنْ تأويلِ الأحاديث. .﴾**

المرحلة الثالثة: بالانطلاقِ مِنَ الخَاصِّ إلى العامِّ بقوله: ﴿**فاطرَ السمواتِ والأرض**﴾.

المرحلة الرابعة: بالوصولِ إلى درجةِ التسليمِ المطلقِ، العامِ والشاملِ في كلِّ الكِيانِ والتصرُّفِ والمآلِ بقوله: ﴿**أنتَ وَليّي في الدنيا والآخرةِ**﴾.

اللطيفة الثانية: في تأمُّلِنا لِغنى المعنى الذي سَاقَتْهُ عِبارَة: ﴿**أنتَ وَليي في الدنيا والآخرة**﴾:

فهو بهذا يتبرَّأُ تبرؤاً كاملاً من حولِه وقوتِهِ إلى حولِ الله تعالى وقوتِهِ ويُعْلِنُ للإنسانيةِ جمعاء، مُعَلِّماً مُهَذِّباً، أنه مَهْمَا بَلَغَت به السُلطةُ والقوةُ والمَنَعَةَ، وإمكانيةُ التحكُّمِ في أرزاقِ الناس، وإعطاءِ مَنْ يشاء ومَنْعِ القوتِ عمن يشاء:

أنه حتى وإن صارَ في أَعلى موقعٍ في الدنيا، وفي هذا دَفْعُ احتمالاتِ التمكُّنِ إلى أَقْصَى مدىً يحتاجهُ إعطاءُ المثلِ؛

أنه حتى وإن حقَّقَ كُلَّ ما تصبو إليه نفسُه، وإن حقَّقَ كُلّ أحلامِهِ؛

أنه حتى وإن صارَ أَغْنَى الناسِ على وجهِ الأرض، ولقد حصَلَ له ذلك ضاماً إلى المثلِ فئاتٍ أُخرى مِنَ المتمكني؛

أنه حتى وإنْ بلَغَ مِنَ العِلْمِ مَبْلَغاً عالياً جداً، يفوقُ قُدْرَةَ الأقرانِ على مجاراتِهِ، في أَيّ بابٍ من أبوابِ العلْمِ كان؛

فهو عبدٌ طائعٌ مؤمنٌ بالله، مُسلِّمٌ أَمرَه إليه، متوكِّلٌ عليه، يَرْجُو منه القَبول، لا تأْخُذُه الدُّنيا بِبَهْرَجِها، ولا يَرْكَنُ إليها.

وعلى كلِّ ما أنعمَ الله تعالى عليه بنعمةٍ عالية، أنْ يقرأَ قِصةَ يوسفَ عليه السلام، ويتأمل قولَه: ﴿**أنتَ وَليّي في الدنيا والآخرة توفنّي مُسْلِماً وألحقْنِي بالصّالحين**﴾.

اللطيفة الثالثة: في مُلاحظتِنا لقولِه: ﴿تَوَفَّنِي مُسْلِماً﴾.

وكَمْ نشعرُ بالسعادةِ إذْ نسمَعُ يوسفَ عليه السلام ابنَ يعقوبَ عليه السلام، والذي اسْمُه إسرائِيلُ يقول: ﴿توفني مُسْلِماً﴾، لكي نُدْرِكَ فَضْلَ الله تعالى علينا، إنْ أَكْرَمَنا بالإِسلام، وجَعَلَه الدِّينَ الحَقّ عندَهُ يَكمّم بقوله أفواهَ الكَذَبة، قَتلَةِ الأنبياء، إذْ يَدْعُونَ أنه كانَ يهودياً، لا والله بل كان حنيفاً مسلماً، مثلَ آبائه يعقوبَ وإسحاقَ وإبراهيمَ عليهمُ السلام، ونحن نَرْفَعُ رُؤُوسَنا عالياً ونقول: إنّ الدينَ عِندَ الله الإِسلام.

مواطن الإستدلال بالآية في الحياة اليومية:

١ - للدلالة على وجوب الإعتراف بفضل الله تعالى، على كل من مكنه الله تعالى إما بالسلطة فصار حاكماً، وإما بالمال فصار غنياً، وإما بالعلم فصار عالماً، وإما بالموهبة فصار مقصوداً، وإما بالذرية فصار وجيهاً؛ فعلى كل هؤلاء أن يتواضعوا لله تعالى فلن يصل أي واحد منهم إلى ما وصل إليه يوسف عليه السلام الذي قال: أنت وليي في الدنيا والآخرة توفني مسلماً وألحقني بالصالحين.

٢ - للدلالة على أن الدين عند الله الإسلام، وإن كل الأنبياء والمرسلين إنما جاؤوا بدين الإسلام، ولقد أسمانا سيدنا إبراهيم عليه السلام من قبل مسلمين، وكل أنبياء الله تعالى ورسله أخوة، وما جاء رسول أو نبي من عند الله تعالى إلا بدين الإسلام، ويشرّفنا أن نسمع يوسف عليه السلام ابن يعقوب عليه السلام، الذي اسمه إسرائيل يقول: توفني مسلماً وألحقني بالصالحين.

ثم يقول الله تعالى:

﴿ذَٰلِكَ مِنْ أَنبَآءِ ٱلْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ ۖ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ أَجْمَعُوٓا۟ أَمْرَهُمْ وَهُمْ يَمْكُرُونَ ﴿١٠٢﴾ وَمَآ أَكْثَرُ ٱلنَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ ﴿١٠٣﴾ وَمَا تَسْـَٔلُهُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ ۚ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿١٠٤﴾﴾

[رقم الحلقة على القرص المدمج: ٧٦]

تعودُ بنا هذه الآياتُ أخي المؤمن إلى وقتِ نزولِ السورة، وقدِ انتهتْ قصةُ يوسفَ عليه السلام، ولم تَنْتهِ السورة بعدُ، ومعَ هذه الآيات، وحتى نهاية السورة، نتابعُ حدثاً لا يَقِلُّ أهميةً عن أَحداثِ قِصة يوسفَ عليه السلام ألا وهو تأكيدُ نُبوّةِ خاتَمِ الأنبياءِ والمرسلين، وتثبيتِ الإعجازِ القرآنيّ بتحديّ المُعاندِين والمُكابرين، وإرساءُ قواعدِ حُجّةِ القرآنِ الكريم على كُلِّ مَنْ أرادَ التشكيكَ بِصدْقِ الرسولِ الكريم.

وقبلَ أن نبدأَ بتأمُّلِ الآياتِ الكريمة، نعودُ فنستذكرُ ما كُنّا قد أشرنا إليه في بدايةِ تأمُّلنا لهذه السورة من حيثُ توقيتُ نزولِها والظروفُ المحيطةُ برسولِ الله ﷺ آنها:

فالسورة مكية، أي نزلَتْ قبلَ الهِجرة، ولم يَكُنِ الرسولُ الأَكرمُ ﷺ في منأىً عَنْ أذيّةِ قريشٍ له، ولم تَكُنْ قد نشأَتْ مؤسسةٌ تحتَضِنُ الدعوةَ الفَتِيّةَ فتردُّ عنها الأَذى، خصوصاً وأنْ أغلبَ الأَوائلِ منَ المؤمنين كانوا إمّا فُقراءَ أو ضِعافاً في قومِهم؛ ثم تكاثرتِ المِحَن، فتوفي عَمُّ رسولِ الله ﷺ، وكانَ يَرُدُّ عنه سفاهةَ قُريشٍ وَجَهْلِهَا، ثم توفيت زَوجَهُ السيدةُ خديجةُ بنتُ خويلد رَضِيَ الله عنها.

فكان ذلك العام، عامَ الحُزْن، ورسولُ الله ﷺ صابرٌ محتسِبٌ متابعٌ دعوةَ الناسِ إلى الإسلام.

ثم جاءَهُ اليهودُ وقد استمعُوا لما نَزَلَ مِنَ الحَقِّ وآيِ الذِكْرِ الحكيم، وتآمَرُوا معَ المُشْرِكِين في مكة، لتكذيب رسولِ الله ﷺ، وقَدْ عَرفُوا أنه أُميٌ لا يَقرأُ ولا يَكْتُب، فوجُدُوها فرصةً سانِحَةً بالطلب إليه بإعلامِهِم بما لم يَعْلَم مِنْ قَصَصِ السالفين، وخَصُّوه بالسؤال عن يوسفَ عليه السلام فكانَ أنْ أَكْرَمَهُ الله تعالى بسورةِ يوسف، وكانَ فيها منَ الخيراتِ ما لا يُمْكِنُنا إحصاؤه:

فلقد جاءَتْ سورةً كاملةً بقصةٍ كاملة، بأُسلوبٍ هادئ يختلفُ عمّا اعتدْنَا سمَاعَه في السُور المكيّة مِنْ جزيلِ العبارة وقوةِ الكلمة، وغلبة التهديدِ والوعيد على القوم الكافرين.

ولقد جاءتْ لرسولِ الله ﷺ سلوى وعزاءً مما هو فيه مِنَ الحُزْنِ.

ولقد جاءَت لردِّ كيدِ المشركينَ وأعدائِهم اليهود، بإظهارِ صدْقِ رسولِ الله ﷺ، بإخبارِهِ عَنْ رَبِّه، أصدقَ الأَخبارِ وأَصَحَّها، بل أظهرتْ كَذِبَ اليهودِ في تحريفِهِم للتوراةِ في بعضِ مَشاهدِ القِصة، وجاءَت مُتكاملةً مُتناسِقَةً مُترابطةً مُتَراصةً مُتوافِقةً مع المنطقِ والحِسِّ والذّوق، غزيرةَ المعاني رفيعة المباني.

ولقد جاءتْ لتُخَاطِبَ عَقْلَ وقَلْبَ المستمعِ والقارىءِ على مَرِّ الزمان، تترُكَ له مَجالَ إعمالِ الفِكْرِ للتّحَقُّقِ المنطقيِّ في أَبوابِ الإعجازِ التي جاءَتْ فيها، فيدفعُ بذلك عَنْ نفسهِ وسَاوِسَ الشيطان في الشكِ والتشكُّك.

نبدأُ بتأمُّلِ الآيات:

يقولُ الله تعالى: **﴿ذلك مِنْ أنباءِ الغيبِ نُوحيهِ إليك وما كُنتُ لديهم إذْ اجمعُوا أَمَرَهم وهم يمكرُون﴾**.

في هذه الآية لطائفُ عدة:

اللطيفة الأولى: في وقوفِنا عندَ كلمة: **﴿ذلك﴾**، فنجِدُ أنها تَخْتِمُ القِصةَ بسلاسَةٍ ويُسْر، وتَنَقُلُنا إلى زمنِ الرسولِ الكريمِ عليه أفضلُ الصلاةِ وأَتَمُّ

التسليم، وتُعيدُنا إلى بدايةِ القِصةِ في قولِ الله تعالى: **﴿نحن نَقُصُّ عليك أحسنَ القَصَصِ بما أوحينا إليكَ هذا القرآن وإنْ كُنتَ مِنْ قبلهِ لِمَن الغافلين﴾**.

اللطيفة الثانية: في ملاحظتِنا لاكتمالِ الوِعاءِ الأكبر، بعدَ اكتمالِ الوعاءِ الأَصغرِ في السورة:

فلقدْ افْتُتِحَ الوعاءُ الأَكبَرُ بقولِ الله تعالى: **﴿نحن نقُصُّ عليك أحسنَ القَصَص﴾**[1].

ثُمَّ افْتُتِحَ الوعاءُ الأصغرُ بقولِ الله تعالى: **﴿إذْ قالَ يوسفُ لأبيهِ يا أبتِ إنّي رأيتُ أحدَ عشرَ كوكباً والشمسَ والقمرَ رأيْتُهم لي سَاجِدينَ﴾**[2].

ثُمَّ اخْتُتِمَ الوعاءُ الأصغرُ بقولِ الله تعالى: **﴿وقال يا أبتِ هذا تأويلُ رُؤيايَ من قبلُ قدْ جَعلها رَبّي حَقًّا﴾**[3].

وهنا يكتملُ الوعاءُ الأكبرُ بقولِ الله تعالى: **﴿ذلك مِنْ أنباءِ الغيبِ نُوحيهِ إليك﴾**.

اللطيفة الثالثة: في ملاحظتِنا لِتَرابُطِ آياتِ القرآنِ الكريمِ كُلِّها في تثبيتِ صِدْقِ الرسولِ الكريمِ فيما يُبَلِّغُ عَنِ الله تعالى مِنْ أمورِ الغيب.

فإذا كُنّا نقرأُ في هذه الآية: **﴿وما كُنتَ لديهم إِذْ أجمعُوا أمرَهم﴾**.

فإننا نجدُ مِثْلَهُ في قولِ الله تعالى: **﴿وما كُنتَ لديهم إِذْ يُلْقُونَ أقلامَهم﴾**[4].

وفي قولِ الله تعالى: **﴿وما كُنتَ بجانبِ الغربِيِّ إِذْ قَضَينَا إلى مُوسى﴾**[5].

---

(١) [سورة يوسف، الآية: ٣].
(٢) [سورة يوسف، الآية: ٤].
(٣) [سورة يوسف، الآية: ١٠٠].
(٤) [سورة آل عمران، الآية: ٤٤].
(٥) [سورة القصص، الآية: ٤٤].

وفي قولِ الله تعالى: ﴿وما كُنتَ بجانبِ الطُّورِ إذْ نادَيْنا﴾[١].

وفي قولِ الله تعالى: ﴿ما كُنتَ تَعْلَمُها أنتَ ولا قَوْمُكَ مِن قَبْلِ﴾[٢] في سورة هود.

وهذه إشاراتُ تثبيتٍ ومحجةٍ وتأييدٍ ودحض.

ثم يقولُ الله تعالى في الآيةِ الثانية، موضوعِ تأمُّلِنا:

﴿وما أكْثَرُ الناسِ ولو حَرَصْتَ بمؤمنين﴾.

في الآية لطيفتان اثنتان:

اللطيفة الأولى: في ملاحظتِنا لترابُطِ أسلوبِ الصياغةِ معَ مُناسبةِ ورودِ الآيةِ الكريمة:

فرسولُ الله ﷺ في أشدِّ حالاتِ المِحنةِ والضِّيقِ، رَحَلَ مُناصِرُه وفَقَدْ مُواسِيَتَه، وكَذَّبَهُ قومُه، ثم جاءَ اليهودُ يتحدَّوْنَهُ في قَصَص الغَيب.

فجعلَ الله تعالى مِنْ تناسُبِ الفُرَصِ فيما قَدَّر لأسبابِ نزولِ هذه السورة من اجتماعِ الحُزنِ في حياةِ الرسولِ الكريم، وتألُّبِ ساداتِ قريشٍ ضِدّهُ، وتَحدِّي اليهودِ له، فأنزلَها بكُلِّ ما فيها من إعجازٍ لغويّ، وإعجازٍ قَصَصِي، وإعجازٍ تاريخي وتسلية قلبِ رسولِه ﷺ بمعرفةِ حالِ يوسفَ عليه السلام،وما مرَّ به مِنْ مِحَن، وما جاءَه بعدَ ذلك مِنْ فرجٍ وسيادةٍ وهي من الإشارَاتِ الإلهية له، لتثبيتِ الفؤادِ وإيذانٌ بقربِ الفرجِ.

فمضى قضاءُ الله تعالى، ونَزلَتِ السُورةُ في هذا الوقت العصيب، هادئةً مترابطة، كأنها نزلَتْ في أهنأِ وأهدأِ الأوقاتِ.

---

(١) [سورة القصص، الآية: ٤٦]. (٢) [سورة هود، الآية: ٤٩].

وبقيتْ لنا، حتى بعد أن آمنَتْ قريشٌ وَغُلِبَتِ اليهودُ في تَحدِّيها، نتمتَّعُ بقراءَتها، ونفتخِرُ باقتنائها، ونُبارِزُ المعانِدينَ بأنْ نَترَكَهُم في تخبُّطِهم يتأمَلُونَ ويحْصُونَ ويناقشون، ويبحثُون عَنِ الثُغراتِ، ولن يجدُوا أبداً.

اللطيفة الثانية: في إدراكِنا للبُعدِ العميقِ الذي أشارَتْ إليه الآيَةُ الكريمةُ بعدمِ إيمانِ أكثرِ الناس حتى ولو حَرَصَ رسولُ الله ﷺ.

وذلك على مستويينِ اثنين:

المستوى الأول: زمنُ بدايةِ الدعوة حين يكونُ الإعراضُ بسببِ تَجذُّرِ المُعْتَقَداتِ الفَاسِدَة في النفوس، وصعوبةِ نَزْعِها، وكَثْرَةِ أعدادِ أَتباعِ الباطل على قِلَّةِ أَعدادِ أَتباعِ الحق.

والمستوى الثاني: بعد حصولِ النجاحِ في نَشْرِ الدعوةِ وانطلاقِها في الأمصار ثم رُكُونِ الناس بعدَ اندفاعٍ، فيعودُ الشيطانُ اللعينُ إلى إغواءِ أبنائِهم وأَبناءِ أبنائهم، فيتركُونَ المنهجِ السَّليم، ويُصيبُهُم الضّياعُ...

ثم يقولُ الله تعالى في الآيةِ الثالثة موضوعِ تأمُّلِنا:

﴿وما تسألُهم عليه من أجر إن هو إلا ذِكرٌ للعالمين﴾.

في هذه الآيةُ لطيفتان اثنتان:

اللطيفة الأولى: في ملاحظتِنا للبُعد النفسيِّ الذي رمَتْ إليه الآيَةُ الكريمة، وذلك بدفعِ الناسِ إلى التساؤلِ عَنْ سِرِّ حِرْصِ رسولِ الله ﷺ على تبليغِ الدعوة:

فهو يعيشُ عِيشةً هانئةً طيبةً كريمة، وهو مُكَرَّمٌ في قومِهِ وقَدْ لَقَّبُوهُ بالأمين.

ولم يُظْلَمْ فيخرجُ لتحصيلِ حَقِّه.

ولم يَكُن طامِعاً في مَركزٍ أو رياسةٍ أو سيادة.

والذي يَقضُّ مضَاجِعَهم، ويجعَلُهم في حالٍ من الدهشة، والاستغرابِ هو ما أشارَتْ إليه الآيةُ الكريمةُ: **﴿وما تسألُهم عليه من أجر إنْ هو إلا ذِكرٌ للعالمِينَ﴾**.

اللطيفة الثانية: في تأمُلِنا لقوله تعالى: **﴿إنْ هو إلا ذِكرٌ للعالمينَ﴾**.

وهي تحملُ إلينا معَانِي الرحمةِ الإلهيةِ بالعباد، ورِفقِهِ بهم، وقد أَسْمَى القرآنَ الكريم «ذِكْراً» أي تَفَكُّراً وتَدَبُّراً، وجعلَه للعالمينَ، ولم يَخُصَّ به قوماً أو فئة، وفي ذلك إيذانٌ منَ الله تعالى لرسولِه الكريم بقُربِ انتهاءِ الزمنِ الصّعبِ في الدعوة.

مواطن الإسترشاد بالآيات الحياة اليومية:

١ - للدلالة على أن الذي يصل إلى مرتبة الإيمان، هو ممن بلغ مرتبة عالية جداً في الإنسانية، وقلة هم المؤمنون حقاً، الذي يستطيعون أن يغالبوا نوازع نفوسهم بالركون إلى الأرض، ولا يتركون لشهواتهم العنان بالإنطلاق على ما تهوى دون ضابط أو رادع، والذين يقدرون الله تعالى حق قدره ويخافونه بالغيب، فإذا ما رأى الواحد منا، آثار غلبة الشيطان على الناس، وبهذه الكثرة، فلا ييتئس ويظن أنه ضعيف مستضعف، بل هو العزيز بتأييد الله تعالى.

٢ - للدلالة على أن القرآن الكريم هو كتاب للعالمين كافة، وليس فقط لأهل الجزيرة العربية، بل أن بركته تمتد لتشمل الكرة الأرضية بكاملها. وعلى من وصلهم، فقرأوه، وتدبروه أن يكونوا أحرص على إيصال هذه الكرامة العليا إلى كل الناس، وأن يكونوا دعاة إلى الله تعالى في كل المجالات، حتى في مجال أعمالهم المتفرقة، أن يدلوا الآخرين على هذا الخير العميم الذي اكتشفوه بالقرآن الكريم.

ثم يقول الله تعالى:

﴿وَكَأَيِّن مِّنْ ءَايَةٍ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ ﴿١٠٥﴾ وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُم بِٱللَّهِ إِلَّا وَهُم مُّشْرِكُونَ ﴿١٠٦﴾﴾

[رقم الحلقة على القرص المدمج: ٧٧]

تُعِيدُنا هذه الآياتُ أخي المؤمن إلى واقعِ رسولِ الله ﷺ في مكة، قبل الهِجْرَة، وهو والمؤمنون الأوائلُ في حالٍ من الإحصارِ والضِيقِ والعُزْلة، وقومُه يُعاندُونَ ويُصِرُّونَ على الإشراكِ مع مَعْرِفَتهم بالله تعالى، ونعودُ مع هذه الآيات، فنتذكّرُ أسبابَ نزُولِ سورة يوسف عليه السلام، وقد لحظْنَا أنها سورةٌ قصصية، تَحْمِلُ في داخِلها كلَّ تَقَلُّباتِ النفسِ الإنسانية، مِنْ وَفاءٍ وتسامحٍ، وغيرَةٍ وتآمر، وسُمُوٍّ ورِفعةٍ، وتضحيةٍ وإخلاصٍ، وضَعْفِ نفسٍ وانصياعٍ للشهوات، وقوةِ عزيمة، ورفضِ انصياعٍ للشهوات، وحِكْمَةٍ وتَدَبُّر، وظُلمٍ وعَفْو، وإحصارٍ وانفراجٍ، وخيبة.

وَعلِمْنا أنها جاءَت لطُمَأنينة نفسِ الرسولِ الكريمِ عليه أفضلُ الصلاةِ وأَتَمُّ التسليم، وتثبيتاً لفؤادِه وتقويةً لعزيمتهِ، ورَدّاً على المكذبينَ بصدقِ بَعْثَتِه وإجابةً عن السؤالِ الخبيثِ الذي سأله المشركون بتحريضٍ من علماءِ اليهود إذْ قالُوا: سَلُوا محمداً لِمَ انتقَل آلُ يعقوبَ منَ الشامِ إلى مصر، وعن كيفيةِ قِصة يوسف، وهم يَعْلَمُونَ أنه لا يقرأُ ولا يكتُبُ ولم تَصِلْهُ أخبارُ الأُممِ السالفة، فكانَ أنْ أثْلَجَ الله تعالى صَدْرِه، وأنزَلَ على قَلْبِه سورةَ يوسفَ بهذه الجماليّةِ الفائقةِ، وكأنها نزلَتْ على أهدأِ حال وأهنأِ بال.

وتأتي الآياتُ الأخيرةُ من السورة، لِتَضَع الإنسانَ المعانِدَ في أضيقِ زاوية، وتُظْهِرَ ضَعْفَ مقولتِه، وواهي حُجّتِهِ، وتَرْسُمَ معالِمَ أحوالِ المشركين في قُصورِ عقولِهم عنْ رُؤيَةِ نُورِ الحَقِّ الذي يُحيطُ بهم مِنْ كُلِّ جانبٍ، بل هو في ذاتِ

كِيانِهِم وتَكوينِهم، وهذا الخطابُ لا يَبْلَى على مَرِّ الزمان، فلنتأمّل الآيات معاً.

يقولُ الله تعالى: **﴿وكأيِّن من آيةٍ في السماواتِ والأرضِ يَمرونَ عليها وهُمْ عنها مُعْرِضُون﴾**.

في هذه الآيةِ لطائفُ عدّة:

اللطيفة الأولى: لُغوية في وُقوفِنا عندَ كلمة **﴿كأَيِّن﴾**.

قال الخليل وسيبويه: أصلُ الكلمةِ: أي بمعنى الاستفهام، ثم دخلَتْ عليها كافُ التشبيه وبُنِيَتْ معها، فصَارَ الكلامُ بمعنى: كم وفي وُرُودِها بهذا الشكل الكثيرُ مِنَ المعاني:

ففيها دَفْعٌ لإعمالِ الفِكْرِ بحثاً عنْ جوابِ السؤالِ اللاحق.

وفيها استنطاقٌ واستجوابٌ.

وفيها تَحدٍ وإظهارُ ضَعْفِ المسؤول.

وفيها معنى اللاحصْر والتَّكْثير.

اللطيفة الثانية: في وقوفِنا عندَ غَزارةِ المعاني التي ساقَتْها الآيةُ الكريمة في النظرِ إلى آياتِ الله تعالى الباهرات في هذا الكون، ولن يسَعَنا هذا المقَامِ إلا أنْ نطُوفُ طوفاً سريعاً خفيفاً على بعضِ هذه الآيات تقريباً للأذهانِ، واستحثاثاً لكلِّ ذِي عقلٍ أنْ يتوسَّعَ في التأَمُّل، فيصلَ إلى تقديرِ الله تعالى حَقَّ قَدْرِه:

فإنّ الناظِرَ في السماء يَرى الكواكبَ والنجومَ السائرَة في نظام بديع في تناسُقٍ وتوازنٍ تام، لا يَقْبَلُ العقلُ إطلاقاً أن يَنْسُبَ إليه الفوضى، ولا يَقْبَلُ إلا أَنْ ينسُبَ إليه الإحكامَ والخضُوعَ للأحكام..

فإذا نظَرَ إلى الشمسِ فوقَه رأى فيها نِعْمَةَ الإنارةِ والدِفءِ والطاقةِ والحرارة والإنباتِ والإنضاجِ.

وإذا نظَرَ إلى القمر، رأى في تأمُّلِه البهاءَ والجمالَ والسكينة..

وإذا أمعَنَ النظَر في الفضاء، رأى الأجرامَ السماويةَ وعلِمَ بوجودِ الأعدادِ الهائلةِ مِنَ النجومِ والكواكب، ودقةِ توازُنِها، وعَلِمَ أنّ هذا بعضاً مِنْ قَدْرةِ الله تعالى فيما خلَقَ في السماوات، واتسعَتْ مَعرفَتُه الآن، فصارَ يعرِفُ أنّ هناكَ أفلاكاً ومجرّاتٍ وشموساً أكبرَ بكثيرٍ مما كان يظن.

فإذا ما ارتدّ بصرُه إلى الأرضِ وما يحيطُ بها مِنْ أغلفةٍ وأجواءٍ تَحْفَظُ الحياةَ عليها بأمرِ الله تعالى، وتَمَعنَّ فيما حوت هذه الأجواءُ مِنْ طبقاتٍ ومِنْ موادّ، ونظرَ إلى آيةِ الهواءِ، والسحابِ والرياحِ والبَرْقِ والرّعْدِ والمطرِ والثلوجِ وطبقاتِ الأُوزون.

وإذا ما نظرَ إلى ما يَحْتَويهِ بَطْنُ الأرضِ مِنْ مَعادنَ، أودعَ الله تعالى فيها مِنَ الخصائصِ المُذْهِشة، بنسَبٍ مُتَبَاينة، لكل مَعْدَنٍ مِنها محاسِنُه وفوائدُه، وخصائِصُه واستعمالاتهُ، ما لا يكادُ يُحْصَى يتراوَحُ مِنَ الترابِ والرّماد إلى موادِّ القنابلِ الذَرِيّةِ والانشِطَارِيّة، مُروراً بأصنافِ الحديدِ والفولاذِ ولو شاء الله تعالى لجعلَها كُلّها صنفاً واحداً.

ثم إذا ما نظَرَ إلى عجائب البحر، وما خلَقَ الله تعالى فيه منَ الأسماكِ والمخلوقاتِ المائية التي تُعَدُّ عالماً عجيباً فريداً، حيثُ الدهشةُ والعَجَبُ من تَناغُمِ الكائناتِ فيما بينها، وتناسقِ حياتِها، وبهاءِ ألوانِها، وجمالِ انسيابِها والتزامِها بدقةِ ما أعطاها الله تعالى مِنْ خصائصَ في التحرك والتنقُّلِ والهِجْرَةِ والتوالد.

وإذا ما نظَرَ إلى عجائبِ البرّ، وما فيه مِنْ أصنافِ المخلوقاتِ الحية، والحيواناتِ الأليفة، وغيرِ الأليفة بالأحجامِ والألوانِ المتفرقةِ البهية، وطُرقِ مَعاشِها وأساليبِ حياتها، وما تتمتّعُ به من غرائز وقُدراتٍ مُبْهِرَة، تخضعُ لقوانينَ دقيقةٍ جداً، لا نعرِفُ عنها الكثير، في تأقلُمٍ مدهشٍ مع ظرُوفِ الحياة، تتغلّبُ

بمراحلَ على مخترعاتِ الإنسانِ واكتشافاتِه في ميادِينِ الكيمياءِ والفيزياءِ، والضّوئياتِ والصوتياتِ، وقوانينِ التوازُن وأحكامِ الطيرانِ وقُدراتِ الحواس.

وهي تعيشُ جنباً إلى جنبٍ مع النباتَاتِ، وهنا أيضاً عالمٌ قائمٌ ضخْمٌ مُستقلٌ، خصّهُ الله تعالى بخصائصَ فريدة في استكانةٍ قد تدومُ قروناً حتى إذا ما لامسَتِ الماء، وبَثَّ فيها الحياة، وانطلقَتْ جُذوراً وجُذوعاً وفروعاً وأغصاناً وأوراقاً وثماراً بألوانٍ بهيجةٍ زاهية ونكهَاتٍ مختلفةٍ متَنَوِّعَةٍ، طيبةِ الطَعْمِ، حُلوَةِ المذاقِ كلُّها نبتتْ من أرضٍ واحدة، وسُقيتْ من ماءٍ واحد، سَخَّرها الله تعالى لمخلوقاتهِ الحية، تأكلُ منها وتحفظُ نَسْلها.

وأعظمُ آياتِ الله تعالى المرئية، هو الإنسانُ بذاتِه، وما جعلَ الله تعالى فيه من دلائلِ عظمتِه وقُدرتِهِ فتوَّجَهُ بالعقلِ، وأكرمَهُ بالحواس، وتفضَّلَ عليه بضبطِ نُمُوِّهِ، وخوَّلَه السُلطَة على بقيةِ المخلوقاتِ الحيةِ منها والسّاكنَة، وجعلَ فيه خاصِيَّةَ المقارنةِ والتمييزِ والاستذكار، وعَلَّمَهُ القِراءَةَ والكِتابة، فراكمَ نجاحاتِ استنتاجهِ وتجاربِهِ، وسَمَحَ له بالتعرُّفِ إلى خصائصِ المخلوقاتِ الحيةِ والساكنة، فاستعانَ بها للوصول إلى مَدارِكَ أعلى في فَهْمِه للقوانينِ الكُونية التي أَوْدَعَها الله تعالى في مخلوقاتهِ.

ومِنْ أعظمِ آياتِ الله تعالى في الإنسان، أصغرُ شيءٍ فيه، وهي الخليةُ الحَيّةُ التي لا تُرى بالعينِ المُجَرّدة وهي عالمٌ هائلٌ مُتسِعٌ مُترَامي الأطراف، يَعُجُّ بكلِّ أصنافِ الحياة، ويحتوي على أضخَمِ المعاملِ والمصانعِ والمستودَعاتِ والمخازنِ والخزائن، ومعاملِ حَرْقِ النُّفايات، ومصانعِ توليدِ الطاقة، وجيوشِ الحراسة، وأرتالِ سُعاةِ البريد، وأَعقد التركيبات الكيميائيةِ، وأوثَقِ الشِفراتِ الوِراثية، وكَمٌ لا يُحْصَى مِنَ المعلوماتِ والوثائقِ الهامّة.

وفوقَ هذا كُلِّه، تأكلُ وتَشْرَبُ وتعملُ عملاً مُنتجاً هادِفاً، وتحفظُ في داخلها كُلّ هُويةِ الإنسانِ التي هي فيه.

﴿وكأينِ من آيةٍ في السماواتِ والأرضِ يَمُرُّونَ عليها وهم عنها مُعْرِضون﴾.

فإذا أعرضُوا عَن كلِّ هذه الآيات، فهم في محنةِ عقلٍ شديدة، عواقِبُها وخيمة.

اللطيفة الثالثة: في وقوفِنا عندَ دِقّةِ العِبارَةِ القُرآنيةِ في قولِ الله تعالى: **﴿وهم مُعْرِضُون﴾.**

ولم يَقُلِ الله تعالى: وهم غافلون.

والإعراضُ أشدُّ مِنَ الغَفْلَةِ: إِذْ إن جُرْمَ الغافلِ لا يتَعَدَّى مَسْأَلَةَ عدمِ إعمالِ الحواسِ، العملَ اللازمَ لاستقبالِ المعلومةِ المعروضةِ عليه، فينعدِمُ بذلك سُوءُ النية.

أمّا الإعراضُ فهو تَرْكُ استقبالِ المعلومةِ المعروضةِ عَنْ سابقِ تَصوُّرٍ وتصميم، جُحوداً وعِناداً ورَفْضاً.

والله تعالى، أعلَمُ بما في نفُوسِ خَلْقِه، فهو بذلكَ يَكْشِفُ سَرائِرَ المُشرِكين، وفي هذا تمهيدٌ للآيةِ التالية:

ثم يقولُ الله تعالى: **﴿وما يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُمْ بالله إلا وهُمْ مُشْرِكُون﴾.**

ولنا أنْ نتساءَلَ هنا: لِمَ هذا الإصرارُ على الإشراكِ بالله تعالى من قِبلِ أَكْثَرِ الناس، وهُم يُؤْمنونَ بالله تعالى، ويُقِرُّونَ بأنه الخالقُ الواحدُ البارىء؟

الحقيقةُ أنّ الجوابَ عَنْ هذا التساؤل واسعٌ مُتَشعِّب يحتاجُ حَيِّزاً أوسعَ مما تَسمَحُ به اللطائفُ، إلا أنه يُمكِنُ إيجازُها بالقول: إنها غلَبَةُ الشيطانِ في تزيينِ الباطل، ورَفْعِ الأهواءِ درجةً أعلى مِنْ تحكيمِ العقلِ في المعروض وعدمِ قَبولِ عرضِ المُسَلَّماتِ على ميزانِ الحِكمَةِ والمنطقِ. المؤسفُ أنَّ عواقِبَ هذه الغَلَبَة، هي أشدُّ تأثيراً من أيةِ مُصيبةٍ أخرى، قد يُصَابُ بها هذا المغلوب في عَلْقِه، مهما بَلَغَتْ، بل لا تُقارِبُها أيةُ مُصِيبةٍ على الإطلاق!

مواطن الإسترشاد بالآيتين في الحياة اليومية:

١ - للدلالة على عظمة الخالق عز وجل فيما خلق، وما ساقته اللطائف من إشارات، ليست إلا غيض من فيض آيات الله تعالى في الكون ويجب على كل واحد منا، في إطار عمله وعلمه واختصاصه ومهنته، أن يكوّن في داخله، زاداً واسعاً من علامات عظمة الله تعالى في خلقه وأن يحدّث بها من هم في محيطه، بل أن يتذاكر مع أهل الإختصاص الآخرين، ما وصلوا إليه هم من تأملهم في خلق الله وآياته، فتتسع فرحتهم ويزداد يقينهم.

٢ - للدلالة على أن المشرك يعرف الله تعالى، لكنه يجحد وحدانيته، ويمكن الإستدلال بالآية في معرض الإشارة إلى قصور عقول المشركين عن بلوغ كمال التمتع بخصائص العقل العالية التي لا تقبل الإشراك أبداً. وحبّذا لو ترك أهل الإشراك، ولو لفترة وجيزة جداً، تمسكهم بالحدود الدنيا التي وصلت إليها عقولهم، وسمحوا للحق والنور بالدخول إلى أبعد ما وضعوا الحواجز عنده، وتركوا للميزان الصالح الصادق الذي تضمه قلوبهم أن يعمل لأدركوا جسامة الفوات الذي يفوتهم

ثم يقول الله تعالى:

﴿أَفَأَمِنُوٓاْ أَن تَأۡتِيَهُمۡ غَٰشِيَةٞ مِّنۡ عَذَابِ ٱللَّهِ أَوۡ تَأۡتِيَهُمُ ٱلسَّاعَةُ بَغۡتَةٗ وَهُمۡ لَا يَشۡعُرُونَ ﴿١٠٧﴾ قُلۡ هَٰذِهِۦ سَبِيلِيٓ أَدۡعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِۚ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا۠ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِيۖ وَسُبۡحَٰنَ ٱللَّهِ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ ﴿١٠٨﴾﴾

[رقم الحلقة على القرص المدمج: ٧٨]

تُتابعُ معنا هاتانِ الآيتان، أخي المؤمن ما كُنّا قد لَحَظْنَاهُ مِنْ إيضاحِ مَنهجِ الدعوةِ إلى الله تعالى الذي اخْتَطَّهُ الرُّسلُ عليهِمُ السلام على مَرِّ الأزمان، يُنِيرُون

للناسِ طريقَ الحقِّ والخلاصِ، ويُحَذِّرُونَهم منَ الوقوعِ في حبائلِ الشيطانِ، ويُنَبِّهُونَهم إلى ضَعْفِ قُوَّتِهم وقِلّةِ حِيلتِهم أمامَ قُوّةِ اللهِ العظيمِ وقُدْرَتِه.

يقولُ اللهُ تعالى: ﴿أَفَأَمِنُوا أَن تَأْتِيَهُمْ غَاشِيَةٌ مِّنْ عَذَابِ اللَّهِ..﴾

في هذا الشطر منَ الآية، لطائفُ عدة:

اللطيفة الأولى: في أسلوبِ الخِطابِ المُوجَّهِ إلى الناسِ كافَة على مَرِّ الأزمانِ في قولِهِ تعالى: ﴿أَفَأَمِنُوا﴾.

وهو الاستفهامُ الإنكاريُّ الذي يأْتِي بمعنى إيضاحِ ضَعْفِ قوةِ النّاس وحِيلتِهم، خصوصاً الأقوياءَ منهم، الذين يَظُنُّونَ أَنفُسَهم بما مَلَكَتْ أَيدِيهم من أَدواتِ القَهْرِ والبَطْشِ، قد أصبحُوا في عِزّةٍ ومَنعَةٍ ومأْمَن.

وفي المعنى زَجْرٌ ووَعِيد: أي إنّ اللهَ تعالى حينَ يسْألَهُم هَلْ أصبحُوا في مأْمَن، فإنه يُنَبِّهُهُم في الوقتِ عينِهِ، أنهم ليسُوا في مَأْمَن، وإذْ يَذْكُرُ لهُمُ الغاشية من عذابِ اللهِ، فإنه يُذَكِّرُهُم بأنّ غيرَهُم مِمّنْ سَبَقَهُم قد أصابَتْه غَاشِيَةٌ حينَ طَغَى وبَغَى وتَكَبَّرَ وتَجبَّر، وعلى أُولي الألبابِ أنْ يَتّعِظُوا ويَعْتَبِرُوا.

اللطيفة الثانية: في لَحْظِنَا لدقَةِ التعبيرِ القُرآنيِّ في قولِ اللهِ تعالى:

﴿أَن تَأْتِيَهُمْ غَاشِيَةٌ مِّنْ عَذَابِ اللَّهِ﴾.

فحيثُ أنّ المقصُودَ منَ الآيةِ هو الزّجْرُ والوعيد، فقد جاءَ حرفُ الجَرِّ «من» للتبعيض، ونفهمُ أنّ الغاشيةَ هي بعضٌ مِنْ عذابِ اللهِ تعالى.

وقد أعَدَّ اللهُ تعالى للكافرينَ المعاندين في جَهَنّمَ مِنَ العذابِ ما لا يُحْصُونَ شِدَّتَه، فويلٌ لهم مما قدَّمَتْ أَيدِيهِم لأَنفسِهم مِنَ الشِدّة.

اللطيفة الثالثة: في تأمُّلِنا لبعضِ ما نراهُ حَوْلَنا مِنْ قوةِ اللهِ تعالى وحَوْلِه في

ما أجرَى مِنْ آياتٍ نَراها بينَ حينٍ وآخر، ومنها نُدْرِكُ أنّ الله تعالى إنْ شاءَ لم يُبْقِ على الأرضِ منَ الكافرينَ ديَّارًا، وإنْ شاءَ لاستَبْدَلَنَا جميعاً بخَلْقٍ آخرينَ:

فمِنْ مَعَالمِ قُدرةِ الله تعالى تَسخيرُ الرِياح، التي تنقَلِبُ فَجْأةً إلى زَوَابعَ وأَعاصير، لا يصْمُدُ في وَجْهِها شيء، وتصبحُ الكُتَلُ الصَخْرِيّةُ الضَخْمَة وكأنّها رِيشٌ تَذْرُوهُ الرِياح، وتأْخُذُ في طريقِها البيوتَ والقُرَى، ولا تُوجَدُ أية قوةٍ على وَجْهِ الأرض، تَقِفُ في وَجْهِها..

ومِنْ معالم قُدرةِ الله تعالى في الأرض، ثَورَانُ البراكينِ بعدَ طُولِ رُقَادٍ، فتَقْذِفُ الحِمَمَ واللّهَبَ إلى أماكنَ بعيدةٍ جداً، وَتَصْهَرُ الصَخْرَ والجبال، وتُحَوِّلُها أنهاراً مِنَ النار، تَلتَهِمُ في طريقِها كُلَّ شيء، وتَمسَحُ عنْ وجْهِ الأرضِ قُرىً بكامِلِهَا في لحظَات، ولا يستطيعون أمامها فِعلَ أيِّ شيءٍ على الإطلاق.

ومِنْ معالمِ قُدرة الله تعالى في الأرض، حدوثُ الزّلازِل والهزّات؛ وكَمْ رأيْنَا ونَرى أنّ ثانيةً واحدةً مِنَ الزلزال، تتْرُكُ خَلْفَها عَشراتِ الألُوف منَ النَّاسِ صَرْعَى، وقد تَحوَّلَتْ قُراهُمْ إلى رُكامٍ وأَنقاض..

ومِنْ معالِمِ قُدرةِ الله تعالى في الأَرض، أنْ يجعلَ إنْ شاءَ الغيثَ الذي يُغاثُ به الناس، ومِنْهُ يَشْرَبُونَ وبه يسْقُون ويَزْرَعُون، سُيولاً جارفةً ذات قُوّةٍ هائلة، تأْخُذُ مَعَها كُلّ ما تَمرُّ عليه في طريقها، ولا ينفعُ مَعَها سُدودٌ ولا حَواجِزُ ولا سَوَاتِر.

هذا بعضٌ مما تَرى أَعيُنُنا وتسمَعُ آذانُنا في مشارقِ الأَرضِ ومَغَارِبها، فكيفَ نحنُ بما أُخْبِرْنا به ولم نَرَهُ مِنَ النّوازِلِ التي نَزَلَتْ بِمَنْ سَبقَ قَبْلَنا مِنَ الأُممِ التي عَصَتْ رَبّها، فأنزَلَ عليها مِنْ أصنافِ العذابِ ما لم تَحْتَسِبْ له، فَسُحِقَتْ عن وَجْهِ الأرضِ في لَمْحِ البَصَر، وبقيتْ آثارُها شاهدةً على أنّ أُمماً قَبْلَنا قَدْ سَلَكَتْ مَسْلَكَ المَعْصِيةِ، فأتاها العَذاب، ولم تَكُنْ بمأْمَن.

ثم يقولُ الله تعالى: **﴿أو تأْتِيهِمُ الساعةُ بَغتةً وهُمْ لا يَشْعُرون﴾**.

أمّا مَجيءُ الساعة، فذاكَ هو الوعدُ الحَقُّ الذي لنْ يَفِرَّ منه مَخْلُوق، وذاك يومُ الفَصْلِ الذي يُفْرَقُ فيه كُلُّ أَمْر، وهو سَيَطَالُ الكُرةَ الأَرضيةَ بكامِلِها. وسيُصيبُ البَشريَة بأكْمَلِها أكْثَرُ من ذلك، سيجتمعُ كُلُّ طُغاةِ الأرضِ منْ أوَّلِ البشريةِ إلى آخرِها في صعيدٍ واحد معَ كُلِّ الناس في محشرٍ واحد، ويَأْخُذُ كُلُّ واحدٍ منهم صَحيفةَ أعمالِه ويَقْرَأُها: الجبارون، والمتكبرون، والكافرون، والمشركون، والمعاندون، والمبارزون، والكاذبون، والمكذِّبون: كُلُّ واحدٍ منهم يأتي وحيداً راجِفاً ذَليلاً يقرأُ سِجِلَّ حَياتِه على مَسْمَعٍ مِنَ الناسِ ومَرْأَى، فسبحانَ الله العادِلِ الذي لا يُضِيعُ مِثقالَ ذَرةٍ في الأرضِ ولا في السماء، وهو الحكيمُ الخبير.

ثم يقولُ الله تعالى في الآيةِ الثانيةِ، موضوعِ تأمُّلِنا:

﴿قل هذه سبيلي أَدْعُوا إلى الله على بصيرةٍ أنا ومَنِ اتبعني وسُبحانَ الله وما أنا مِنَ المشركين﴾.

في هذه الآيةِ لطائفُ عدة:

اللطيفة الأولى: لُغوية، في وقوفِنا عندَ كلمةِ **﴿سَبيلي﴾**، وقد جاءَت في هذه الآية مُؤَنَّثَة، وهذه مِنْ طَواعيةِ الُّلغةِ العربيةِ ومُرونَتِها، وتأْتي أيضاً بصيغةِ المُذَكَّر، وتؤدِّي المعنى ذاته، ويُحَدِّدُ سِياقُ العِبارةِ التذكيرَ أو التأْنيث، ونحن نقرأُ في الآيةِ السادسةِ والأربعينَ بعدَ المائةِ من سورة الأَعراف، قَوْلَ الله تعالى: **﴿وإِنْ يَرَوا سَبيلَ الرُّشْدِ لا يَتَّخِذُوه سبيلاً وإِنْ يَرَوا سبيلَ الغَيِّ يَتَخِذُوهُ سبيلا﴾**.

اللطيفة الثانية: في وقوفِنا عند كلمةِ بصيرة، ونتساءَلُ عَنْ مَعْنَى وُرُودِها في وَصْفِ الدعوةِ إلى الله تعالى.

فالبصرُ هو النظرُ الذي يُمَكِّنُنا مِنْ إدراكِ كُنْهِ المحسُوسَاتِ القابلةِ لعكسِ موجاتِ الضوء، ضِمْنَ حَيِّزِ الالتقاطِ المغرُوسِ في عُيونِنا.

والبصيرةُ هي إدراكُ معنى الأُمورُ الحِسّيَةِ والمعنوية، المرئيةِ أو المسموعةِ أو المعقولةِ، ثم عَرْضُها على مِيزَانِ القَبولِ أو الرفض، إمّا تَطَابُقاً وإما تَضَاداً، ثم صَبْغُها بلونِ الاستحسانِ أو الاستهجان، وهي بالتالي مسألةٌ بالغةُ الدِّقة، فإذا جاءَتْ في الآيةِ الكريمةِ لِتكونَ الصِيغَةِ المختارة للدعوة إلى الله تعالى، فإنها تجعلُ مِنْ هذه الدعوةِ أمراً ذا شأنٍ عالٍ، لا يَقْتَصِرُ عُلُوُّ شأْنِهِ على الرسولِ الكريمِ عليه أفضلُ الصلاةِ وأَتمُّ التسليم، بل تَنْسَاقُ على كُلِّ الدُّعاةِ مِمّنْ تَبعِه لقولِهِ تعالى: ﴿**أَدْعُو إِلَى اللهِ عَلَى بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتبعَنِي**﴾، وهي تستَحِقُّ مِنْ كلِّ الدُّعاةِ الانتباهِ الشديدَ إلى أَنّ الدعوةَ إلى الله تعالى، يجبُ أنْ تكونَ على بصيرة.

ومِنْ أركانِها: القُدرةُ على رُؤيةِ الواقعِ الذي يَدْعُو فيه إلى الله تعالى، بوضوحٍ ونَقَاءٍ وتَجرُّد.

ومنْ أركانِها: القُدرةُ على ضبطِ النفس حتى تَسْمَعَ مِنَ الآخرينَ كُلّ ما يَشاؤُون قولَه، دونَ اضطرابٍ أو هِيَاج.

ومِن أركانِها: أسلوبُ حوارٍ مُقْنِع، يُرَقِّقُ أسوارَ الرفضِ عِنْدَ المدعُوّ حتى تتهاوَى وتَذْوِي..

ومِنْ أركانِها: الصبرُ حتى يحصُلَ القَبول، والصَبرُ على الأَذى حتى لا تَتُوقَ النفس إلى الثأرِ لذَاتِها.

ومِنْ أركانِها: حُبُّ الناس، وإرادةُ تَخْلِيصهم مِنْ سوءِ المآل بعدَ الحسابِ.

فَلْيَعْلَمِ الدُّعاةُ أنّ عليهم مهمة بناءِ أنفسِهم قبلَ أنْ يتوجَّهُوا إلى الناس.

اللطيفة الثالثة: في ملاحظتِنا أنَّ الآيةَ الكريمة، جاءَتْ لِتُشَدِّدَ الوعيدَ على المشركين، حتى لا يُظَنَّ أنّ الإشراكَ أَقَلُّ جُرماً مِنَ التكذيبِ والإلحادِ وتأتي مباشرةً بعدَ قولِ الله تعالى: ﴿**وما يُؤمِنُ أَكْثرُهم بالله إلا وهُمْ مُشْرِكُون**﴾.

فَتَدَرَجَتْ في توكيدِ المعنى على ثلاثِ دَرَجات:

الدرجةُ الأُولى: في إيضاحِ مَنْهَجِ الدعوةِ إلى الله تعالى على بصيرة..

والدرجةُ الثانية: في قوله: ﴿**وسُبحانَ الله**﴾، لِبيَانِ مَعنى أنّي أُنَزِّهُهُ سبحانَه وتعالى، تَنْزيهاً مُطْلَقاً مِنَ الشركاء.

والدرجةُ الثالثة: التعبيرُ اللَّفظِيُّ في قوله: ﴿**وما أنا مِنَ المُشْرِكِين**﴾.

مواطن الإسترشاد بالآيتين في الحياة اليومية:

١ - للدلالة على أن عذاب الله تعالى ليس ببعيد عن الناس في دنياهم، وأن قضاءه واقع ومكتوب منذ الأزل وأن هذه المعرفة يجب أن تقودهم إلى حال من اليقظة والحذر والإستعداد الدائم للإنتقال المفاجىء من حال الكسب والتحصيل إلى حال انقطاع العمل والإستعداد للحساب.

٢ - للدلالة على وجوب انتهاج منهج علمي سليم للدعوة إلى الله تعالى. وهذا علم شامل كامل، يجب على الداعية معرفته واتقانه قبل النزول إلى ساحة الدعوة، فلا تنجح دعوة مبنية على الإندفاع وقد أغفلت البصيرة، وهو علم دقيق يحتاج صبراً، وتهذيباً وأدباً وتعمقاً في فهم النفس البشرية، ويا حبذا، لو تكون هناك مناهج علمية، وامتحانات دقيقة ومباريات صعبة ولجان فاحصة، حتى يكون الداعية حقاً، نوراً يسعى على الأرض.

ثم يقول الله تعالى:

﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ إِلَّا رِجَالٗا نُّوحِيٓ إِلَيۡهِم مِّنۡ أَهۡلِ ٱلۡقُرَىٰٓۗ أَفَلَمۡ يَسِيرُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَيَنظُرُواْ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡۗ وَلَدَارُ ٱلۡأٓخِرَةِ خَيۡرٞ لِّلَّذِينَ ٱتَّقَوۡاْۚ أَفَلَا تَعۡقِلُونَ ۝١٠٩ حَتَّىٰٓ إِذَا ٱسۡتَيۡـَٔسَ ٱلرُّسُلُ وَظَنُّوٓاْ أَنَّهُمۡ قَدۡ كُذِبُواْ جَآءَهُمۡ نَصۡرُنَا فَنُجِّيَ مَن نَّشَآءُۖ وَلَا يُرَدُّ بَأۡسُنَا عَنِ ٱلۡقَوۡمِ ٱلۡمُجۡرِمِينَ ۝١١٠﴾

[رقم الحلقة على القرص المدمج: ٧٩]

تَخْتَصِرُ هاتانِ الآيتانِ، أخي المؤمن، صِفاتِ المرسلَينَ الكِرام عليهِم الصلاةُ والسلام، وتَحْكِي لنا قِصَّةَ الرِسالةِ بكامِلها، مِنْ أَوَّلِ نبيٍّ مُرسلٍ إلى خاتمِ الأَنبياءِ والمرسلين، محمدٍ عليه أفضلُ الصلاةِ وأَتمُّ التسليم.

فلْنتأمَّلِ الآيتين.

يقولُ الله تعالى: **﴿وما أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ إلا رجالاً نُوحي إليهم من أهلِ القُرى أَفلم يَسيرُوا في الأرضِ فينظُروا كيفَ كانَ عاقبةُ الذين مِنْ قَبْلِهم ولَدارُ الآخرةِ خيرٌ للذين اتَّقَوا أفلا تَعْقِلُون﴾**.

في هذه الآيةِ لطائفُ عدة:

اللطيفة الأولى: في لحظِنا لأداةِ الحَصْرِ والاستثناءِ في قولِهِ تعالى:

﴿وما أرْسَلْنا مِنْ قَبْلِكَ إلا رجالاً﴾.

ونَفْهَمُ مِنْ هذا الأسلوبِ اللُغويّ أنّ الله سبحانه وتعالى قد وَضَعَ قواعدَ الرسالةِ وصفاتِ المُرْسَلِينَ، وهي تتلَّخصُ بالتالي:

الرسولُ رَجُل اخْتَارَهُ الله تعالى مِنْ بني البَشر مِنْ بينِ قومِه، ولَمْ يُرْسِلْ للنّاسِ ملائكة، أو مِنْ أهلِ الجِنّ، مَنْ يُعَلِّمُونَهم أمورَ دِينهِم، والغريبُ في

الأمر، أنّ بعضَ الناسِ طَلَبُوا هذا المطلب، فقالوا كما في الآيةِ الثامنةِ من سورةِ الأَنعام:

﴿وقالوا لولا أُنزِلَ عليه مَلَك ولو أَنزَلْنا مَلَكاً لَقُضِيَ الأمرُ ثم لا ينظَرون﴾، وكذلك في الآيةِ الحاديةِ والعشرينَ من سورةِ الفُرقان: **﴿وقال الذينَ لا يَرْجُونَ لقاءَنا لولا أُنزِلَ علينا الملائكة أو نَرى رَبَّنا لقدِ اسْتَكْبَرُوا في أَنفِسهم وعتو عتواً كبيراً﴾**.

ثم إنَّ الرسولَ يتلقى العِلْمَ عنِ الله تعالى بالوحي، وتلكَ خَاصَّةٌ فريدةٌ يَتميزُ بها عن بقيةِ الخَلْقِ في التلقِّي، وتتجَاوَزُ المعروفَ والمُعتادَ بينَ الناس في أَساليبِ المعرفة، وما يُمَيِّزُها هو خُلُوُّها مِنْ عيوبِ وسائلِ التلقِّي، المعروفة، مِنْ سَمْعٍ وبَصَرٍ وَلمسٍ وشَمٍ وذَوق، وكلُّها عُرضَةٌ لحصولِ الخَطأِ أو الظَنّ، أو تعدد احتمالاتِ الحقيقة. أما في الوحي، فهي الحقيقةُ المُطلَقة، الخاليةُ مِنَ الشوائبِ، الواضحةِ النّاصِعَةِ الجَلِيَّة، وقد تَكَفَّلَ الله تعالى بقُدْرتِهِ العَلِيّة أنْ يحفظَ الوحيَ مِنْ طَوارىء سُنَّتِه في خَلْقِهِ، فمَنَعَ عَنِ الرسولِ الخطأَ أو النسيانَ فيما يتعلَّقُ بالوحي، إلا أنّه أجرى عليه سُنَّتَهُ فيما سِوَى ذلك على ما سنرى في الآيةِ الثانية، موضوعِ تأمُّلِنا اليومَ..

ثم إنّ الله تعالى شاءَ أنْ يكونَ الرسولُ مِنْ أهلِ القُرى، أي مِمّنْ أقامُوا في أماكنَ ثابتة، لِمَا في الثّباتِ مِنْ هدوءٍ واستقرار..

وتكونَ مصدرَ انطلاقٍ للدعوة، ومكان استقطابٍ للوافدين مِنَ الأَمصار، ولِمَا لأَهلِ القُرى والمدنِ مِنْ مُواصفاتِ المُجْتَمَعِ المَدَنِيِّ المتكامل مِنْ أنظمةٍ ثابتة، ومصادرِ مَعِيشَةٍ ثابتة، ونزوعٍ نحوَ التقدُّمِ والرُّقي، ورغبةٍ في تجميعِ مُكْتَسَباتِ الحَضارةِ وتَدوِينِها.

اللطيفة الثانية: في لَحظِنا لعودةِ أُسلوبِ الاستفهامِ الإنكارِيِّ في الآية مَعَ

قولِ الله تعالى: **﴿أَفَلَمْ يَسيرُوا في الأرضِ فينظُروا كيفَ كانَ عاقبةُ الذين مِنْ قَبلِهم﴾**.

ويعودُ هذا الاستفهام ليَرْفَعُ مِنْ مسْتَوى التحفيزِ الذِهنيِّ والإعمالِ الفِكريِّ للقارىءِ والمستمعِ بعدَ أن كانَ ارتفعَ إليه معَ قولِ الله تعالى في الآياتِ السابقة: **﴿أفأَمِنُوا أن تأْتِيهِم غاشيةٌ مِنْ عذابِ الله أو تأتِيَهُمُ الساعةُ بَغْتَةً وهُمْ لا يَشْعُرون﴾**.

وهذا الأسلوبُ في هذه الآيات الأخيرةِ يُعيدُنا إلى الأجواءِ المَكيّةِ التي نزَلَتْ فيها السورة، حَمْلاً للمُشركينَ على إعمالِ العَقْلِ وتغليبِ المَنْطِق على انجذابِ العَصبيةِ والعَاطِفةِ والانفعالِ، وينقُلُنا نحنُ إلى مُستوىً أرقى في التعامُلِ معَ القناعاتِ والمعَتقدات، وعَرضِها دائماً على ميزانِ العقلِ والمَنْطِق.

اللطيفة الثالثة: في وُقوفِنا عندَ قولِ الله تعالى: **﴿أفلم يَسيرُوا في الأرضِ فيَنظُروا﴾**.

إنها دعوةٌ للناسِ للبحثِ والتنقيبِ وفيها إرساءٌ لِعلْم الآثار، بل أقولُ لكثيرِ مِنَ العُلومِ الحديثة، كعِلمِ الأنتربولوجيا، وعلم تاريخِ القرونِ الغَابِرة التي تقومُ على الإفادَةِ مِنْ بقايا ما تَرَكَهُ الأقدمون للتعرُّفِ على أَحوالِهم بالاستقصاءِ والبحث، والتنقيبِ والاستنتاج معَ غيابِ الآثارِ المُدَوَّنة.

ولقد أعْلَمَنا الله تعالى عَنْ هذه الأُمَمِ الغابِرَةِ في القرآن الكريم، وإن كنّا قد بدأنا نكتشِفُ آثارَها حديثاً، لتأْتِي هذه الاكتشافاتُ لِتُؤكِدَ صِدْقَ بيانِ القرآنِ الكريم عن أُمورِ غيبيةٍ ما شَهِدْناها..

ومن الأمثلةِ: حالُ فِرعونَ معَ قومِهِ وحالُ نبيِّ الله نُوحٍ عليه السلامُ معَ قَوْمِه، وحالُ عادٍ معَ نَبِيِّهم هودٍ عليه السلام، وحالُ ثمودٍ معَ نبيِّهم صالحٍ عليه السلام، وحالُ نبيِّ الله لوطٍ عليه السلام معَ قومِه وحالُ إبراهيمَ عليه السلام معَ

قومِه، وحالُ موسى عليه السلامُ معَ قومِه، وكثيرٌ منَ الأنبياءِ والرُّسُل الكرام الذين قَصَّ علينا القرآن الكريمُ منْ قَصَصِهم، وذَكَر لنا أحوالِهم عِظَةً وعِبرةً، فإذا ما جَاءَتِ العلومُ الحديثة، بكُلِّ وَسائِلها وأجهزةِ الاكتشافِ الضوئيةِ والإلكترونيةِ الفائقةِ الدقة، ومِجَسَّاتِ المَسحِ الجيولوجي، وكاسحاتِ الطّبقاتِ الأرضية، وأدواتِ الرصدِ الذّريّةِ، إنّما جَاءَتْ كلُّها لِتُرْضِيَ حُبَّ المعرفةِ، والاستكشافِ الذي غَرَسَهُ الله تعالى فينا في قوله لنا: ﴿**أفلَمْ يَسِيروا في الأرضِ فَينظُروا**﴾.

اللطيفة الرابعة: في مُلاحظتِنا للقَاعدةِ القُرآنيةِ التي أَرستها الآيةُ الكريمة، ومُفَادُها: أنّ كُلَّ عملٍ يَجِبُ أنْ يَهْدِفَ إلى غايةٍ تَعْقُبُه، ولا يُقْبَلُ عَملٌ أُنْجِزَ هَذْراً، فإذا حَثَّتِ الآيةُ الكريمةُ النّاسِ على إعمالِ الفِكرِ والعقلِ والجُهْدِ لمعرفةِ أحوالِ الأُممِ السابقة فإنما ذلك يَهْدِفُ إلى استخلاصِ العِبَرِ مِنْ مصيرِ الأُممِ البائدة: لقد كانَتْ عاقبةُ الأُممِ العاصية وخيمةً وَبِيلةً، فأصابَ الغَرَقُ والطُّوفانُ قومَ نوحٍ عليه السلام، وأصابَ قومَ هودٍ عليه السلام الرِجسُ والغضَب، وأصابَ قومَ صالحٍ عليه السلامُ الرّجْفَة، فأصبحوا في دارهم جاثمين، وأصابَ قومَ لوطٍ عليه السلامُ مَطَرُ السَوْءِ فأُغرِقُوا، وأصابَ قومَ شُعيبٍ عليه السلامُ الرّجْفَةُ ومَوْتُ الفُجأَة، فما نجا مِنهم من أَحد، ولقد عَلِمنا ما كان حالَ فرعونَ إذ تكَبَّرَ وتعالى في الأرض، فأَخْرَجَهُ الله تعالى مِنَ النعيم الذي عاشَه، وأَغرَقَهُ في اليمِّ شَرّ مِيتة.

ولا تترُكنا الآيةُ الكريمةُ مِنْ غيرِ ما إرشاد، فهي تنتهي بقولِ الله تعالى: ﴿**ولدارُ الآخرةِ خيرٌ للذين اتقَوا أفلا تَعْقِلُون**﴾.

ثم يقولُ الله تعالى: ﴿**حتى إذا استيأَسَ الرُسُلُ وظَنُّوا أنّهم قد كُذِبُوا جاءَهُم نَصْرُنا فنُجِّي من نشاء ولا يُرَدُّ بأْسُنا عنِ القَومِ المُجرِمين**﴾.

في هذه الآيةِ لطائف عدة:

اللطيفة الأولى: في وقوفنا عند كلمة ﴿**استيأَسَ الرُّسُل**﴾، وهي زَاخِرةٌ بالمعاني:

فهي تُوضِحُ لنا إنسانيةَ الرُّسُل حتى وإنْ كانُوا ممَنْ اصْطَفَى الله تعالى مِنَ الخَلْقِ.

وهم، وإن جاءَهُمْ عِلْمُ الشَّرْعِ بالوحي، فإنْ ذلك لم يمنَعْ عَنْهُمْ أن يشْعُرُوا بِما يَشْعُرُ به النّاس مِنْ جُوعِ وظَماً، من ألم وأذِيَةٍ، مِنْ أملٍ واستبشار، وإحباطٍ وحُزنٍ، وهُم كما وصَفَهُمُ الله تعالى، يأكلُونَ الطعامَ ويَمْشُونَ في الأسواق.

فإذا حَمَلُوا الرسالةَ وطافُوا على الناسِ يُبَلِّغُونَهُم، فَهُم لم يَضْمَنُوا سُرعَةَ الاستجابة، ولا يقينَ القَبول، ولم يُؤخَذُوا بالإحضان، بل رُجِمُوا بالحجارةِ فصَبرُوا وجَالَدُوا وجَاهَدُوا وتَحمّلُوا كُلَّ أصْنافِ الرّفْضِ والإذلالِ والعَذاب.

ولأنَهُم بشَر، فلقدْ أجرى الله تعالى عليهم سُنّتَهُ في القُدرةِ على الاحتمالِ لذلك جاءَتْ العِبارةُ بصيغةِ المبالغة، في قولِ الله تعالى، ﴿**استيأس الرُسُل**﴾.

اللطيفة الثانية: في فَهمِنا للإشارةِ اللطيفة المُرْسَلَةِ لرسول الله ﷺ، إيناساً وتَطْميناً في هذا الظرفِ الصّعبِ مِنْ مُعانَدةِ قومِه، ورَفْضِهِمُ الإيمانَ والتّصديق، وقد بلَغَ به الإحصارُ مَبْلَغاً عالياً في قولِ الله تعالى: ﴿**وظَنُّوا أنهم قد كُذِبُوا جاءَهُم نَصْرُنا**﴾.

ولقد صَدقَ الله تعالى رسولَه، وإن كانَ في هذه اللحظات، لا يَرى النَّصر، وإنما رأى في الإشارَةِ القُرآنيةِ تثبيتاً لِقَلْبِهِ وأنه سيكونُ له ما كان للرُسُلِ مِنْ قَبْلِهِ.

اللطيفة الثالثة: في عُمقِ المعنى الذي حَمَلتهُ عِبارة: ﴿**ولا يُرَدُّ بأسُنا عَنِ القَومِ المُجرمين**﴾.

فهي تحملُ القولَ الفصلَ الحاسِمَ والجازم في انعدامِ حيلةِ القومِ المُجرِمينَ مَهْمَا اشْتَدَّتْ وتَعَالَتْ، وهذا تدليلٌ على قصور عُقولِ المُعَانِدِين، حتى وَلو بَلَغوا شأواً عالياً في العِلْم، حتى ولو بَلَغتْ بِهِمُ القُوةُ والمَنَعَةُ إلى حُدودِ الخيالِ، فهم ضُعفَاءُ أَذِلاّء، وقد سَبَقَ ورَأَيْنا كيف أنّ بعضَ آياتِ الله تعالى في الأَرض، لو شاءَ أنْ يُرْسِلَها على الناس، لغَدَتْ دِفَاعَاتُهم وحَصونُهم أوْهَى مِنْ بيتِ العنكبوت.

ومن جميلِ الصُّورِ التي يُعْلِمُنا بها القرآنُ الكريم إجتهادُ ولَدِ نُوحِ الذي رَفَضَ أنْ يُؤمِنَ بالله تعالى، ودَعاهُ نوحٌ عليه السلام إلى النّجاةِ في الفُلْك، إذْ قال: ﴿سآوِي إلى جبلٍ يَعْصِمُني مِنَ الماء قال لا عَاصِمَ اليومَ مِنْ أمرِ الله إلا مَنْ رَحِم وحالَ بينهُما الموجُ فكانَ مِنَ المُغْرَقِين﴾(١).

مواطن الإسترشاد بالآيات في الحياة اليومية:

١ - للدلالة على وجوب أخذ العبرة من أحوال الأمم السابقة، بل وجوب التعرف، ولو جزئياً على ما كان منهم، وما كان مآلهم، وجميل منا أن نُبَسّط علوم الآثار، لتدعم أساس معرفتنا القرآنية عن أحوال الأمم الغابرة، وكيف كان عقابها حين بغت وتكبرت وظنت أنها بلغت أوج القوة، وهي في الحقيقة في أضعف حال، حتى تدرك أن ظاهر القوة التي نراها في الأمم المتكبرة المتجبرة في عصرنا، لا يختلف عما كانت عليه سالفتها، وقد قسمها الله تعالى وهدّ جبروتها، فتكون لنا تهذيباً وعظة وعبرة.

٢ - للدلالة على أن نصر الله تعالى للمستضعفين من المؤمنين آتٍ لا محالة، شرط أن يكونوا حقاً جديرين بهذا النصر، وهو أن يحققوا في أنفسهم شرط الصلاح والتقى، وأن يكونوا حقاً مخلصين لله تعالى، وقد أسقطوا عنهم كل أسباب الركون إلى الأرض، وقد طهروا أنفسهم من الحرام والربا، وأصلحوا العلاقة مع الله تعالى، في سرهم وجهرهم.

---

(١) [سورة هود، الآية: ٤٣].